الإنساني 60

الهجرة:
البحث عن مكان تحت الشمس

تصدر كل ثلاثة شهور عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر

ICRC

غير مخصصة للبيع | العدد الستون | شتاء 2016

الرسم: **توكا نيستاني**، إيران، [1960 –]

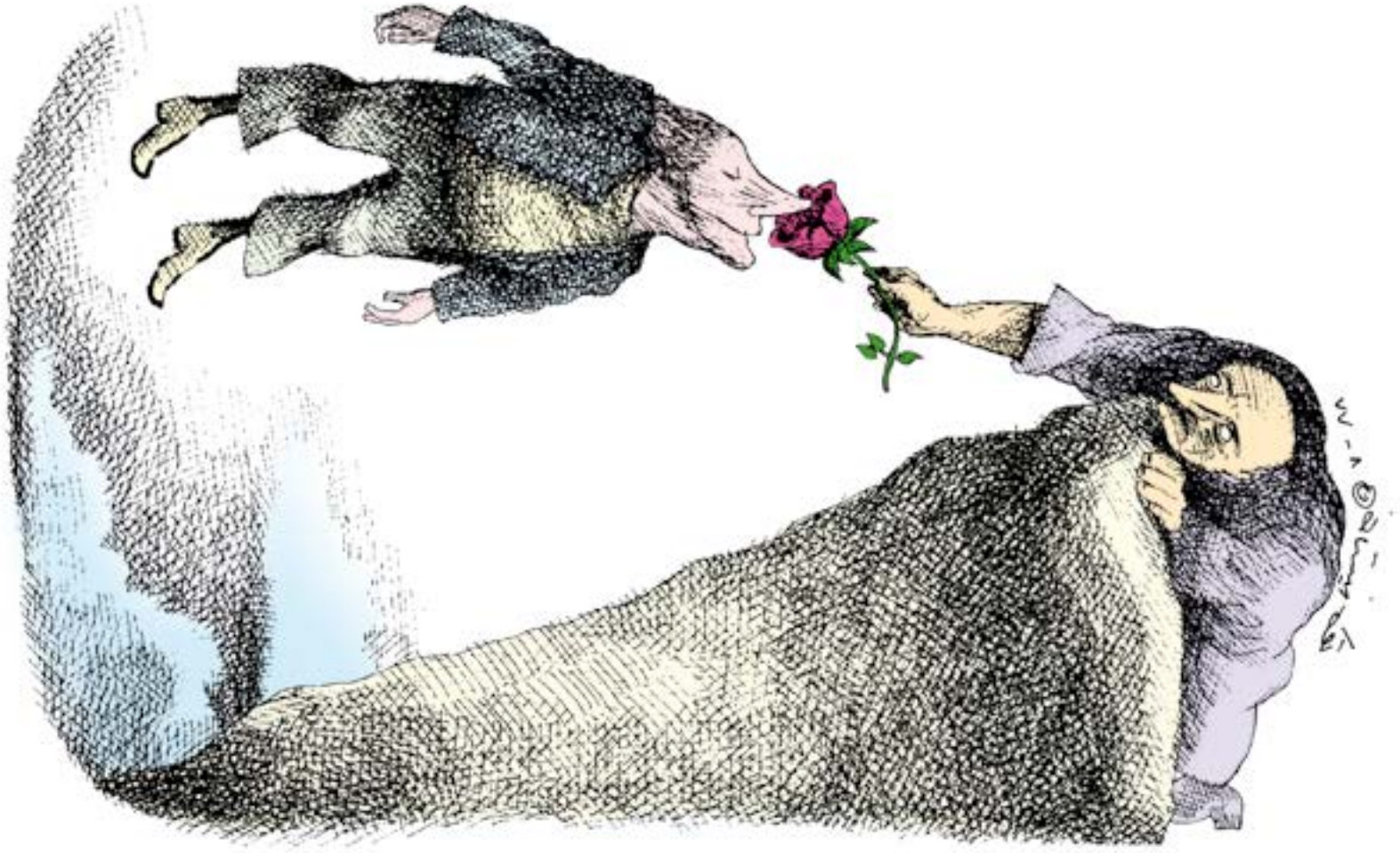

زمن الشتات

إذا كان القرن التاسع عشر هو عصر الهجرة العظيمة، الذي انطلق فيه ملايين البشر لاكتشاف أراضٍ جديدة، فإن القرن العشرين هو عصر اللجوء الصادم والدامي. فقد أُجبر أكثر من 100 مليون إنسان على مغادرة ديارهم بفعل الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثم بفعل تأسيس دول جديدة، كما كان حال نحو 17 مليون شخص وجدوا أنفسهم مجبرين على المغادرة لحظة تأسيس دولة باكستان في منتصف القرن العشرين.

والعقود اللاحقة لم تكن أكثر عطفًا على البشر ولم تخفف عنهم آلام الارتحال، لكنها على الأقل لم تصل إلى مستوى يومنا هذا، الذي أعطت فيه أعمال العنف المختلفة قرابة 60 مليون شخص صفة المهاجر، سواء كانوا لاجئين أو نازحين أو مرتحلين طوعًا.

تفرض هذه الموجة غير المسبوقة والمعقدة من الهجرة تحديات جسيمة على العالم بأكمله والعمل الإنساني. ففي ظل التغيرات المستمرة في صور النزاعات المسلحة، التي تنخرط فيها عشرات الجماعات المسلحة إلى جانب الحكومات في الأعمال العدائية، فإن قواعد القانون الدولي الإنساني أو «قانون الحرب» لا تجد دائمًا الاحترام المطلوب. فغالبًا ما تتجاهل أطراف النزاع قواعد هذا القانون، فلا تبذل ما يكفي من الجهود لتفادي وقوع ضحايا من المدنيين أو تستهدفهم بشكل مباشر في بعض الأحيان، مما يجبر الملايين على الفرار من ديارهم. ولا نجد مناصًا هنا من القول إنه لو جرى الالتزام بقواعد قانون الحرب، لتمتع السكان المدنيون بالحماية ولما تعرضوا لخطر الموت أو معاناة قسوة الارتحال خارج بلادهم. في سياق مثل هذا، تصبح تلبية احتياجات المهاجرين والنازحين مهمة بالغة الصعوبة. فضخامة عدد اللاجئين ومحدودية الإمكانيات وصعوبة الوصول إليهم في أحيان كثيرة، تقلل من فرص إيصال المساعدات لهم. وتتفاقم هذه المشكلة مع عجز المجتمعات المستقبلة للاجئين عن توفير الدعم والحماية للفئات المستضعفة منهم. كما يؤدي استمرار الصراعات المسلحة إلى خلق موجات لا تنتهي من النزوح واللجوء.

تدرك اللجنة الدولية للصليب الأحمر أنه من غير المنطقي وضع كل المهاجرين في سلة واحدة، نظرًا لاختلاف أهداف كل مهاجر. فهناك من يهاجر نازحًا أو لاجئًا لأن الهجرة هي وسيلته الوحيدة للبقاء على قيد الحياة، وهناك من يهاجر بحثًا عن مصدر رزق له ولأسرته. لكن يجمع بين هؤلاء كلهم قواسم إنسانية مشتركة، فهم يعانون من فراق أسرهم وأوطانهم، وقد يشعرون بالاستضعاف والاغتراب في مجتمعات لا ترحب بهم دائمًا. هم جميعًا يبحثون عن مستقبل أفضل كبديل عن ماضٍ سليب.

لذلك تحاول المنظمات الإنسانية، ومنها اللجنة الدولية للصليب الأحمر، جاهدة مجابهة الآثار السلبية للهجرة، إمَّا من خلال الإجراءات الاستباقية بدعوة الأطراف المنخرطة في الصراعات المسلحة إلى اتخاذ التدابير اللازمة والامتثال لقواعد القانون الدولي الإنساني، أو بالاستجابة لاحتياجات المهاجرين الإنسانية، من خلال توفير الخدمات وسبل الحماية لهم، خاصة الفئات المستضعفة منهم.

قبل نحو عقد من الزمان، أفردت «الإنساني» (العدد 39) مساحة لقضية الهجرة وأبعادها الإنسانية. والآن نعيد الكرة مرة أخرى، فنحاول قراءة مشهد الهجرة المعاصر بكل أوجهه وتعقيداته، ننقب في ماضي الهجرة، والخبرات التي تراكمت جرَّاء التعامل مع ملايين المهاجرين في أصقاع الأرض المختلفة. ننظر إلى الدوافع التي تجبر البعض على الفرار من ديارهم، ونتعرف على تجارب يرويها لاجئون عما عانوه في رحلاتهم. كما نبحث في الذاكرة الجمعية والصور النمطية التي تكونت عن هؤلاء المهاجرين في الفنون والأدب. وأخيرًا نلقي الضوء على جهود المنظمات الإنسانية في التخفيف من آلام الهجرة.

«الإنساني»

الإنساني

تصدر كل ثلاثة شهور عن
اللجنة الدولية للصليب الأحمر

رئيس التحرير زينب غصن
مدير التحرير أحمد زكي عثمان
مستشار التحرير رباب الرفاعي

المراسلات : 33 شارع 106 حدائق المعادي، القاهرة 11431، مصر
هاتف : 25281540/25281541 فاكس : 25281566
البريد الإلكتروني: cai_csc@icrc.org
الموقع الإلكتروني: www.icrc.org/ara

الآراء الواردة بهذه المطبوعة لا تعبر إلا عن وجهة نظر أصحابها

الإشراف الفني أحمد اللباد

ICRC

اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمة مستقلة محايدة، أنشئت عام 1863. مهمتها إنسانية بحتة، تتمثل في حماية أرواح ضحايا الحرب وكرامتهم وتقديم المساعدة لهم. تقوم اللجنة بتوجيه وتنسيق أنشطة الإغاثة التي تنفذها الحركة الدولية للصليب والهلال الأحمر. وتعمل على ترويج وتدعيم القانون والمبادئ الإنسانية العالمية.

ICRC

صورة الغلاف: امرأة سورية تمسك بطفليها خارج خيمة للاجئين بالقرب من الحدود النمساوية في تِشْرِين الثاني/نوفمبر 2015. تصوير: توماس دورزاك (اللجنة الدولية للصليب الأحمر). أما العنوان فهو مقتبس من رواية الأديب الفلسطيني الراحل غسان كنفاني «رجال في الشمس».

ICRC

60 شتاء 2016

لقاء إنساني أخفق في تعزيز الامتثال لقانون الحرب ..... إعداد: أحمد زكي عثمان 05
دور اللجنة الدولية في مساعدة المهاجرين 09
هل يوفر القانون الدولي الإنساني الحماية للمهاجرين؟ .....عمر مكي 12
حياة الشقاء من أجل البقاء: التماس الملجأ في يمن الحرب .....عدنان حزام 14
وافدون إلى الخليج: أعداد ضخمة وتحديات إنسانية كبيرة سينتيا عون وريهام باعشر 16
التغريبة السورية: عندما يتحول نصف الشعب إلى نازحين ..... إبراهيم دراجي 19
موسم الرحلات مجهولة المصير ..... مجد بو مجاهد 22
شهادة: رحلة عبر مراكب الموت ..... نور الواكي 24
أزمة إنسانية غير مسبوقة على أبواب أوروبا ..... لوسيل ماربو 28
عندما يتحول الهاتف الذكي إلى طوق نجاة ..... محمد علَّام فرغلي 30
لبنان: حق التعليم لنصف مليون طفل سوري على المحك ..... منال عبد الأحد 32
السودان: آمال العبور تطغى على هواجس الهلاك ..... مزدلفة محمد عثمان 34
جنوب السودان: ليلى ذات الخامسة تعود إلى المنزل ..... ياميلا كاسترو 36
أفغانستان: هارون وشهزاد عادا لكنف عائلتهما ..... شامشاد عمر 37
اللاجئون الأفغان في السينما الإيرانية: صورة الوطن قاتمة ..... محسن آزرم 38
الأفريقي ..... علاء خالد 41
وثائق للجنة الدولية تحكي قصص 100 عام من اللجوء ..... دانييل بالميري 44
الشوام في مصر: الارتحال إلى النهضة ..... أ. ز. 46
اللاجئ لا يحكي ..... إيمان مرسال 48
الهجرة الإرادية في سبيل الإنسانية ..... ناجي محمد شفيق 52
شعر: سفر ..... أحمد عبد المعطي حجازي 54
من أركان العالم 55
إصدارات 58

إعداد: **أحمد زكي عثمان**

لقاء إنساني أخفق في تعزيز الامتثال لقانون الحرب

يُعدُّ المؤتمر الدولي للصليب الأحمر والهلال الأحمر محفلًا عالميًّا فريدًا، يجمع مكونات الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر مع ممثلي معظم دول العالم كلَّ أربع سنوات، من أجل التباحث حول التحديات التي تفرضها النزاعات المسلحة على قواعد القانون الدولي الإنساني الذي يعرف أيضًا باسم «قانون الحرب». وفي المؤتمر الأخير المنعقد في كانون الأول/ ديسمبر الماضي، أخفقت الدول في إقرار آلية جديدة لتعزيز الامتثال لهذا القانون من قبل الأطراف المنخرطة في النزاعات.

...

بعد أربع سنوات من العمل المضني، لم تتمكن الدول المشاركة في **المؤتمر الدولي الثاني والثلاثين للصليب الأحمر والهلال الأحمر**، من إقرار آلية جديدة اقترحتها **اللجنة الدولية للصليب الأحمر** لتعزيز الامتثال للقانون الدولي الإنساني، في ظل التطورات المقلقة على صعيد النزاعات المسلحة في أماكن مختلفة من العالم.

وقد صاغت **اللجنة الدولية** مقترحها في مشروع قرار يقضي بإنشاء منبر حكومي دولي غير مسيس لتبادل الآراء حول القضايا الرئيسة ذات الصلة بالقانون الدولي الإنساني. وينص الاقتراح على أن ينظم هذا المنبر الحكومي الدولي اجتماعًا سنويًّا للدول الأطراف في **اتفاقيات جنيف** للنقاش وتبادل الخبرات والبحث حول أفضل السبل لاحترام قواعد القانون الدولي الإنساني.

وكان **المؤتمر الدولي الحادي والثلاثون** والذي عُقد في العام 2011، قد أصدر قرارًا أوصى فيه بانخراط **اللجنة الدولية** في مشاورات مع الدول من أجل «**استكشاف السبل التي من شأنها تحسين وضمان فاعلية آليات الامتثال للقانون الدولي الإنساني**». وطيلة ثلاث سنوات، انخرطت اللجنة الدولية في اجتماعات تشاورية شملت أكثر من 140 دولة، وتوصلت إلى ضرورة إنشاء آلية جديدة بموجبها تعقد الدول الأطراف في **اتفاقيات جنيف** اجتماعًا دوريًّا، له اختصاصات ومهام محددة، ليناقش المواضيع والقضايا التي لا تحظى بإجماع الدول مثل تطبيق قانون الحرب. جرت مناقشة هذه العناصر بالتفصيل في المؤتمر الدولي الأخير الذي عُقد في **جنيف** في الفترة من 8–10 كانون الأول/ ديسمبر الماضي، إلا أن الدول المشاركة في المؤتمر لم تتوصل إلى توافق حول مبادرة اللجنة الدولية بتدشين هذه الآلية الجديدة.

وتنبع أهمية هذه الآلية المقترحة من أنها تسد فراغًا في **اتفاقيات جنيف**، ذلك لأن هذه الاتفاقيات لا تنص على عقد اجتماع دوريٍّ وسنويٍّ للتباحث حول القضايا الإنسانية الملحَّة، فالفرصة الوحيدة للحوار حول العمل الإنساني والقانون الدولي تتوفر فقط كل أربع سنوات من خلال المؤتمر الدولي.

وعبرت كلمات رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر **بيتر ماورير** في ختام المؤتمر عن خيبة الأمل جرَّاء عدم تمكن الدول من إقرار هذه الآلية، فقال: «**يُستهان بالقانون الدولي الإنساني بصورة يومية تقريبًا في كل نزاع من النزاعات الدائرة في جميع أنحاء العالم. وقد فوَّتت الدول، بعدم دعمها لهذه المبادرة، فرصة تقديم المساعدة اللازمة لحماية الملايين من الناس**».

إلا أن الدول المشاركة، وعوضًا عن إقرار الآلية الجديدة المقترحة من اللجنة الدولية، وافقت على الدخول في مباحثات حكومية على الصعيد العالمي للبحث في السبل الكفيلة بتعزيز تنفيذ القانون الدولي الإنساني، على أن تعرض نتائج هذه المباحثات في المؤتمر الدولي المقبل والمقرر عقده في العام 2019.

سياق المؤتمر

في السنوات الأخيرة، حذرت اللجنة الدولية مرارًا من الانتهاكات المتواصلة لقواعد الحرب في النزاعات المسلحة التي تدور رحاها في مناطق مختلفة في العالم. كما انخرطت اللجنة الدولية في دراسة وتحليل الشكل بالغ التعقيد لساحات المعارك، نظرًا للتنوع الكبير في الجماعات المسلحة المنخرطة في النزاعات المعاصرة. ففي منطقة الشرق الأوسط، وفي أعقاب ما يسمى بـ «**الربيع العربي**»، ظهرت جماعات مسلحة لا تُعد ولا تحصى في دول مثل **سورية** و**ليبيا**. ولم يسبق للمنطقة أن شهدت هذا العدد المهول من هذه الجماعات منذ الحرب العالمية الثانية. ولا ينفرد الشرق الأوسط بهذه الخاصية، ففي مناطق أخرى من العالم، على غرار جنوب وشرق آسيا، تشير التقديرات إلى أن عدد الجماعات التي تحمل السلاح وتنخرط في نزاعات قد تضاعف مرتين

في السنوات الأخيرة اهتمت اللجنة الدولية بدراسة وتحليل الشكل بالغ التعقيد للنزاعات المسلحة المعاصرة، نظرًا للتنوع الكبير في الجماعات المسلحة المنخرطة فيها

ICRC

عمَّا كان عليه في العقد الماضي. علاوة على هذا، فقد أصبحت هذه النزاعات المسلحة أطول أمدًا، وباتت آثارها تتجاوز الحدود الوطنية، لتلقي بظلالها على أمن المحيط الإقليمي ككل.

يفرض هذا التغير في مستوى الفاعلين العسكريين تحدِّيات جمَّة على صعيد العمل الإنساني. فكثيرًا ما يتم تجاهل قواعد القانون الدولي الإنساني من قبل أطراف النزاعات ويُستهدف المدنيون وتُدمَّر الأعيان ويُجبر السكَّان على النزوح. كما يصبح العنف الجنسي سلاحًا يستخدم في المعارك. ومن ناحية أخرى، يطرح هذا التنوع في أطراف النزاع معضلة للعاملين في المجال الإنساني، وذلك لتعدد الأطراف التي ينبغي على المنظمات الإنسانية التفاوض معها بهدف إيصال المساعدات ومواد الإغاثة إلى المدنيين.

وقد أولى تقرير أعدته اللجنة الدولية للمؤتمر بشأن «**القانون الدولي الإنساني وتحديات النزاعات المسلحة المعاصرة**» اهتمامًا فائقًا بالتحولات المعاصرة على صعيد النزاعات

المسلحة. فتحدث التقرير عن وسائل وأساليب الحرب على غرار التكنولوجيات الجديدة المستخدمة في النزاعات (مثل الحرب السيبرانية ومنظومات الأسلحة التلقائية)، كما أفرد مساحة لرصد التحديات القانونية في التعامل مع ما يسمى «الإرهاب» ومكافحته. وهذا هو التقرير الرابع من نوعه الذي تُعده اللجنة حول التحديات التي تفرضها النزاعات المسلحة المعاصرة على قواعد القانون الدولي الإنساني، فقد سبق لها أن قدمت التقارير الثلاثة الأولى إلى المؤتمرات الدولية التي عقدت في 2003 و2007 و2011.

وتناول التقرير أيضًا التحديات التي يفرضها نطاق الحماية في القانون الدولي الإنساني، مثل صعوبة إيصال المساعدات الإنسانية للمدنيين، وتحدي توفير الحماية الخاصة لأفراد وأعيان الخدمات الطبية. وبحث **المؤتمر الدولي** العقبات التي تعيق المنظمات الإنسانية عن إيصال المساعدات وتوفير الحماية للمدنيين أو المخاطر الأمنية التي تهدد العاملين والمساعدات الإنسانية على حدٍّ سواء.

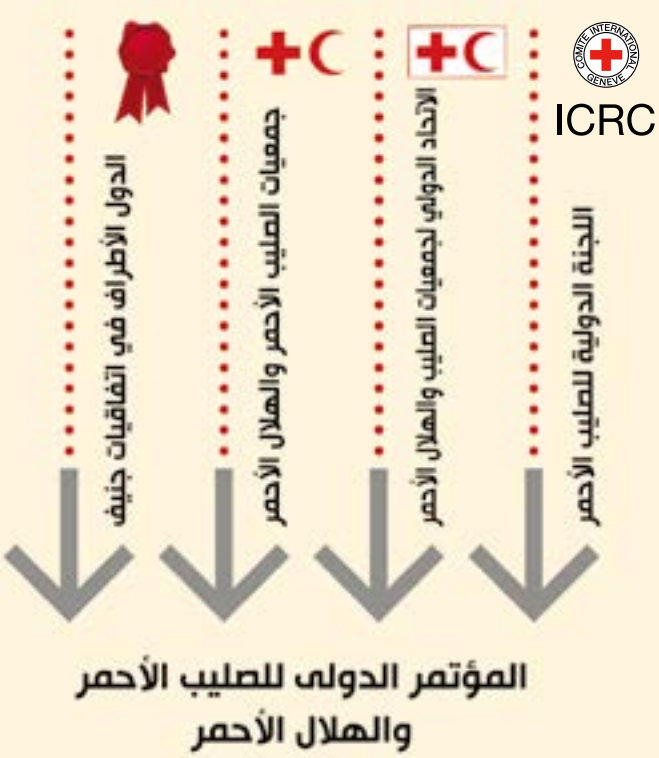

بالإضافة إلى ذلك، خصص **المؤتمر الدولي** حيزًا كبيرًا من المداولات لجملة من القضايا التي أضحت تحتل مكانًا رئيسًا في الأجندة الحالية للجنة الدولية على غرار توفير الحماية للأطقم الطبية العاملة في الميدان. وتُعد قضية حماية مقدمي الرعاية الصحية في المناطق التي •••

يُعقد المؤتمر الدولي كلَّ أربع سنوات بهدف التباحث حول التحديات التي تفرضها النزاعات المسلحة على قواعد القانون الدولي الإنساني، وذلك بحضور جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر المُعترف بها (189 جمعية وطنية)، والدول الأطراف في اتفاقيات جنيف (194 دولة)، واللجنة الدولية للصليب الأحمر، والاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر (الاتحاد الدولي). كما تشارك فيه منظمات إنسانية وإنمائية إقليمية ودولية والأمم المتحدة والعديد من وكالاتها المتخصصة بصفة مراقب.

وينص النظام الأساسي للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر على أنَّ «المؤتمر الدولي هو أعلى سلطة للتشاور في الحركة. وفي المؤتمر الدولي يلتقي ممثلو مكونات الحركة مع ممثلي الدول الأطراف في اتفاقيات جنيف (...). ويتدارسون معًا المسائل الإنسانية ذات الاهتمام المشترك وأي مسائل أخرى تتصل بها، ويتخذون القرارات بشأنها» (المادة 8).

تشهد أعمال عنف مسلَّح، من القضايا التي تحظى بتاريخ طويل في عمل اللجنة الدولية (صيغت اتفاقية جنيف الأولى العام 1864 لضمان رعاية المقاتلين الجرحى وحماية من يقدمون الرعاية الصحية). لكن في ظل الصراعات المعاصرة، تصاعد استهداف الأطقم الطبية في البلاد التي تشهد أعمال عنف مسلح. وسبق لحملة «**الرعاية الصحية في خطر**» التي اضطلعت بها الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، أن وثَّقت مئات الأمثلة لحالات استهداف الأطقم الطبية في النزاعات المسلحة، سواء عن قصد أو عن غير قصد. وكشف تقرير للجنة الدولية صدر في العام 2013 عن «**وقوع 921 حادثة عنف على الأقل ضد العاملين في مجال الرعاية الصحية والبنى التحتية الصحية والجرحى والمرضى في العام 2012**». أضف إلى ذلك، تصاعد ظاهرة أخرى وهي استخدام بعض أطراف النزاع للمرافق ووسائل النقل الطبية في العمليات المسلحة؛ كاستخدامها منصات لشن هجمات أو لتخزين أسلحة أو غيرها من الأنشطة التي يحظرها قانون الحرب.

تحدي موجة الهجرة

تداول المؤتمرون أزمة الهجرة الحالية التي اتخذت في السنوات الأخيرة منحًى غير مسبوق منذ الحرب العالمية الثانية. فقد أضحى قرابة 60 مليون شخص في عداد النازحين بسبب أعمال العنف المسلح، وهو ما يستلزم تنظيم استجابة إنسانية فعَّالة ومستدامة لمساعدة وحماية هذا العدد المهول من النازحين. وكانت الدول المشاركة في **المؤتمر الدولي الحادي والثلاثين** العام 2011، قد أقرت استراتيجية للهجرة تضمنت تعهدات حكومية بالعمل على توفير الخدمات الأساسية للمهاجرين، وتشجيع نبذ العنف ضدهم، وصياغة برامج للاندماج الاجتماعي في البلدان التي ارتحلوا إليها. وفي **المؤتمر الدولي الثاني والثلاثين**، بحثت الدول سبل وضع هذه الاستراتيجية محل التنفيذ الشامل. وفي هذا السياق، اقترحت اللجنة الدولية ضرورة تغيير وجهة النظر حيال المهاجرين بالتركيز على حال الاستضعاف التي يواجهها المهاجرون وجعلها الدافع الرئيس لعملية تقديم المساعدات الإنسانية. وتختلف هذه النظرة عن السياسة التي تربط تقديم الدعم للمهاجرين في حال ما إذا تمتعوا بصفة «اللاجئين» قانونيًّا. من هنا، أطلق قادة **الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر** نداءً للحكومات بأن تشارك بإيجابية مع مكونات الحركة في مبادرات تستهدف توفير الرعاية الصحية وغيرها من أشكال الدعم للمهاجرين المستضعفين، وكذلك تمكينهم من التواصل مع عائلاتهم. كما طالب قادة الحركة الحكومات بمنح المهاجرين الفرصة كي يحيوا حياة طبيعية وليس تكديسهم في مخيمات، فضلًا عن توفير الحماية للمحتجزين منهم خاصة القُصَّر.

وأخيرًا وليس آخرًا، أبدى المؤتمر الدولي اهتمامًا واضحًا بمسألة التأثير السلبي للعوامل الأمنية على المهاجرين. وفي هذا الصدد، ذكر قادة الحركة بوضوح في بيان صدر بتاريخ 9 كانون الأول/ ديسمبر «**أن الضرورات الأمنية ينبغي ألا تحل محل الواجبات الإنسانية، أو بمعنى آخر على الدول ألا تضع الأولويات الأمنية على حساب الاعتبارات الإنسانية واحترام حقوق جميع المهاجرين**».

قضايا أخرى

شكَّل المؤتمر الدولي مناسبة لإحياء الذكرى الخمسين لإعلان المبادئ الأساسية للحركة الدولية وهي: الإنسانية، وعدم التحيز، والحياد، والاستقلال، والخدمة التطوعية، والوحدة، والعالمية، والتي اعتمدها المؤتمر الدولي العشرون (فيينا 1965) ونقحها المؤتمر الدولي الخامس والعشرون (جنيف 1986).

كما ناقش المؤتمر الظاهرة المقلقة الخاصة بالعنف العشوائي الذي يتخذ شكل هجمات في أنحاء متفرقة من العالم على غرار ما حدث في يولا (نيجيريا)، وباريس (فرنسا) وبيروت (لبنان)، والمعضلات القانونية التي يفرضها مثل هذا العنف. فمن ناحية أولى، يحظر القانون الدولي الإنساني جميع أشكال أعمال العنف أو التهديد به لبث الذعر بين السكان المدنيين. ومن ناحية أخرى، فإنه ينبغي للدول أن تضع القانون معيارًا لأي رد فعل تتخذه ضد أعمال العنف هذه، وأن تضع المعايير الدولية في اعتبارها عند التعامل مع المحتجزين. وفي هذا الصدد، اعتمد المؤتمر الدولي المنصرم قرارًا يهدف إلى إيجاد السبل الكفيلة بتحسين الحماية للأشخاص المحتجزين في النزاعات المسلحة غير الدولية ■

AFP

شكَّل المؤتمر الدولي مناسبة لإحياء الذكرى الخمسين لإعلان المبادئ الأساسية للحركة الدولية وهي: الإنسانية، وعدم التحيز، والحياد، والاستقلال، والخدمة التطوعية، والوحدة، والعالمية

ICRC

دور اللجنة الدولية في مساعدة المهاجرين*

لا تشجِّع اللجنة الدولية للصليب الأحمر الهجرة أو تثبطها، وإنما ينصبُّ تركيزها على مساعدة أشد المهاجرين ضعفًا، بصرف النظر عن مركزهم القانوني. وتكيِّف اللجنة الدولية أنشطتها وفقًا لاحتياجات المهاجرين وجوانب ضعفهم، وكذلك وفقًا للموقع الجغرافي.

تشكل الهجرة ظاهرة عالمية معقدة. فعدد المهاجرين في العالم يزيد على 230 مليون نسمة، وتتجاوز الطرق التي يسلكونها الحدود والمناطق الجغرافية. وأسباب الهجرة كثيرة ومتنوعة، وغالبًا ما تنطوي على مزيج من عوامل الشدِّ والجذب. ويمكن لأي سبب كان أن يصبح المهاجرون مستضعفين في مراحل كثيرة من رحلة سفرهم من بلدانهم الأصلية، عبر بلدان أخرى في كثير من الأحيان، إلى وجهتهم المنشودة. ومع أن الكثير من المهاجرين يصلون بسلام إلى البلدان التي قصدوها ويندمجون في المجتمعات المحلية الجديدة، يتحمل آخرون مشقات جمَّة يمكنها أن تضرَّ بالسلامة الجسدية للمهاجرين وعائلاتهم وصحتهم العقلية ورفاههم. وكثيرًا ما يمر المهاجرون عبر مناطق تدور فيها نزاعات مسلحة أو حالات عنف أخرى حيث يمكن أن يَعلَقوا. ويُتَّخَذون طوال مسيرتهم هدفًا سهلًا لإساءة المعاملة والاستغلال، ويواجهون مخاطر أخرى لا تُحصى. ويفقد بعض المهاجرين الاتصال بعائلاتهم؛ ويعاني الكثيرون من حوادث أو أمراض خطيرة ولا يستطيعون الحصول على الرعاية الطبية؛ ويُحتجز مهاجرون آخرون بسبب الدخول إلى بلد ما أو البقاء فيه بصورة غير شرعية. بل إن مهاجرين آخرين يقابلون بالتمييز عندما يلتمسون المساعدة. ويموت أو يختفي سنويًا آلاف المهاجرين على طول طريق الهجرة، تاركين عائلاتهم تنتظر بقلق الحصول على أجوبة بشأن مصيرهم. وهؤلاء المهاجرون الضعفاء هم الذين تسعى **اللجنة الدولية للصليب الأحمر** إلى مد يد المساعدة لهم.

* هذا نص مختصر من كتيب «الأنشطة المخصصة للمهاجرين» الصادر عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر في تشرين الأول/أكتوبر 2015.

نهجنا

بالنظر إلى طبيعة الهجرة العابرة للأقاليم، تعتمد **اللجنة الدولية** وبقية مكونات الحركة •••

الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر على حضورها على طول طرق الهجرة لزيادة فهم احتياجات المهاجرين المستضعفين الضعفاء والمساعدة على سد الفجوات القائمة بشأن الحماية والمساعدة. ويُنفذ عمل اللجنة الدولية لصالح المهاجرين الضعفاء وعائلاتهم في معظم الأحيان في المناطق المتضررة من النزاعات المسلحة أو حالات العنف الأخرى. وتسعى اللجنة الدولية إلى العمل مع الدول التي تتحمل المسؤولية الرئيسية عن ضمان سلامة جميع الموجودين على إقليمها أو الخاضعين لولايتها القضائية، بصرف النظر عن وضعهم كمهاجرين. وتقر اللجنة الدولية بأن حجم الاحتياجات الإنسانية يستلزم تعاونًا فعَّالًا في سبيل تلبية احتياجات هؤلاء المهاجرين المستضعفين. وتُولي العناية لحضور الجهات الفاعلة الأخرى وقدراتها، وتُرسي أسس التعاون مع الجهات الفاعلة التي تملك خبرة في العمل مع المهاجرين. ومن شأن هذا التنسيق، داخل الحركة وخارجها على حد سواء، مع المجتمع المدني والأوساط الإنسانية الأوسع نطاقًا أن يشكل جزءًا لا يتجزأ من عمل اللجنة الدولية.

حماية المهاجرين

تسعى اللجنة الدولية إلى ضمان أن تفيَ الدول بما عليها من التزامات بحماية أرواح المهاجرين الضعفاء وصون كرامتهم وتخفيف معاناتهم. وتحقيقًا لهذه الغاية، نخاطب جميع السلطات المعنية بطريقة مباشرة وسرية. كما نحاول إذكاء الوعي بالقانون الدولي الإنساني، وقانون حقوق الإنسان، وقانون اللاجئين، والقواعد والمعايير الأخرى المنطبقة، ونوجه الانتباه إلى المسائل التي تثير قلق المهاجرين. وسعيًا إلى زيادة فهم الهجرة والاستضعاف الذي يواجهه المهاجرون، نعزز أيضًا تبادل الخبرات مع المؤسسات البحثية. وتعتمد هذه التبادلات على خبرتنا الجمعية ونستخدم البحوث القائمة على الأدلة للمساهمة في المناقشة وتعميق تحليل هذه المسائل. وعلاوة على ذلك، نتخذ إجراءات من أجل مساعدة المهاجرين ومجتمعاتهم كي يصبحوا أكثر قدرة على الصمود. ونساعد على الحد من جوانب ضعفهم وتخفيف معاناتهم بإسداء المشورة وتقديم الدعم المادي.

تزور اللجنة الدولية المهاجرين المحتجزين في مرافق الاحتجاز الجنائي ومرافق الاحتجاز المخصصة للمهاجرين.

ICRC

الأنشطة المخصصة للمهاجرين المحتجزين

تزور اللجنة الدولية المهاجرين المحتجزين في كل من مرافق الاحتجاز الجنائي ومرافق الاحتجاز المخصصة للمهاجرين. ونقيِّم خلال هذه الزيارات ما إذا كانت تتاح للمحتجزين محاكمات وفق الأصول القانونية، وما إذا كانوا يتلقون معاملة إنسانية ويحتجزون في ظروف تصون كرامتهم. ونقيِّم أيضًا ما إذا كانوا يستطيعون البقاء على اتصال بالعالم الخارجي، مثل الاتصال بعائلاتهم والسلطات القنصلية، إذا أرادوا ذلك. وبالإضافة إلى ذلك، نتأكد من أن السلطات تفي بالتزاماتها بمقتضى القانون الدولي –ولا سيما التقيُّد بمبدأ عدم الإعادة القسرية. ونسعى جاهدين أثناء اضطلاعنا بأنشطتنا إلى إقامة حوار بنَّاء مع سلطات الاحتجاز ومؤازرتها فيما تبذله من جهود للتحسين.

وينتهي الأمر بالكثير من المهاجرين إلى الاحتجاز لأنهم دخلوا إلى بلد ما أو بقوا فيه بصورة غير شرعية. ولكن عواقب خطيرة تترتب على حرمان الناس من حريتهم. فقد بيَّن عدد كبير من البحوث أن الاحتجاز الإداري مضر للغاية، ولا سيما لصحة المهاجرين العقلية، بسبب انعدام اليقين إزاء العملية الإدارية والخوف على المستقبل. ويُضاعِف

هذا الخوف أثر الصدمات التي يعاني منها أصلًا المهاجرون. فنذكِّر السلطات بأنه يشترط في أي احتجاز أن يكون ضروريًا ومعقولًا ومتناسبًا من أجل تحقيق هدف مشروع. ونحثُّ السلطات على جعل الاحتجاز ملاذًا أخيرًا وعلى استخدام بدائل له، ولا سيما عندما يتصل الأمر بفئات ضعيفة كالأطفال والأفراد المصابين بصدمات.

إعادة الروابط العائلية

يشكل فقدان الاتصال بالعائلة إحدى النتائج الشائعة للهجرة، ويمكن أن يؤدي إلى صعوبات واحتياجات أخرى. وقد يقلص المرض أو الإصابة أو الافتقار إلى الموارد أو الاحتجاز إمكانية استعانة المهاجرين بوسائل الاتصال. وقد يُحرم بعض المهاجرين قسرًا من الاتصال بعائلاتهم، في حين قد يتردد آخرون في الاتصال بعائلاتهم أو قد لا يرغبون في ذلك. وينطبق هذا الأمر بوجه خاص على المهاجرين الذين تعتبرهم السلطات في وضع غير شرعي.

وتساعد شبكة الروابط العائلية المؤلفة من اللجنة الدولية و189 جمعية وطنية على منع اختفاء الأشخاص أو تفرقهم، وتعمل على إعادة الاتصال بين أفراد العائلة والحفاظ عليه، متى أمكن وحيثما أمكن. كما تحاول هذه الشبكة مساعدة الأشخاص على معرفة ما حدث لأقربائهم الذين أُبلغ عن اختفائهم. وتشمل الخدمات التي تقدمها **شبكة الروابط العائلية:**

مساعدة الأشخاص على الاتصال بأقربائهم بواسطة الهاتف والرسائل المكتوبة يدويًا وموقعنا الشبكي (familylinks.icrc.org)؛

جمع طلبات البحث عن المفقودين وحصرها مركزيًا؛ وتسجيل الأفراد ومتابعة شؤونهم بهدف منع اختفائهم، ولا سيما الأشخاص الضعفاء مثل الأطفال غير المصحوبين بذويهم وكبار السن والمهاجرين الذين يعانون من المشاكل الصحية؛

ولمِّ شمل العائلات؛ ومساعدة السلطات على معرفة ما حلَّ بالمهاجرين المفقودين.

وفي حال وفاة المهاجرين، لا تُعامل جثثهم بطريقة لائقة في أغلب الأحيان ولا تُتخذ دائمًا خطوات لضمان تحديد هويتهم. وتقدم اللجنة الدولية الدعم في مجال الطب الشرعي وتشجع التواصل والتعاون بين دوائر الطب الشرعي وغيرها من الوكالات والمنظمات لأغراض إنسانية. ونشجع أفضل الممارسات في مجال الطب الشرعي بهدف ضمان التعامل مع الجثث بطريقة لائقة وكريمة، وتوثيق حالات الوفاة، وتحديد هوية الشخص قدر الإمكان، وإعادة الجثث إلى الوطن أو دفنها على نحو لائق. ونعمل أيضًا مع السلطات على ضمان قيامها بإخطار العائلات، عند الإمكان، وإصدار شهادة وفاة رسمية.

مساعدة المهاجرين

تسعى اللجنة الدولية إلى الحفاظ على علاقات وثيقة بالمتضررين من النزاعات المسلحة وحالات العنف الأخرى من أفراد وجماعات، كي يتسنى تحديد احتياجاتهم الخاصة بدقة. فربما يكون المهاجرون قد عانوا أثناء رحلتهم من العنف أو سوء المعاملة أو الاستغلال. وغالبًا ما يتحملون أيضًا ظروفًا بالغة الصعوبة يمكن أن تؤدي إلى إصابات وأمراض وجفاف وسوء تغذية. ويمكننا تبعًا للظروف أن نقدم الإغاثة المباشرة أو نساعد المهاجرين في الحصول على الخدمات التي تتيحها الجمعيات الوطنية أو الحكومات أو الجهات الفاعلة الأخرى. وغالبًا ما تُتاح المساعدات التي نقدمها إلى المهاجرين الضعفاء على طول طرق الهجرة بالتعاون الوثيق مع الجهات الشريكة الأخرى، مثل الجمعيات الوطنية. ويمكن أن تتضمن هذه المساعدات، مثلًا، الإمداد بمياه الشرب ومستلزمات النظافة الشخصية أو تقديم خدمات الرعاية الصحية الأولية وإعادة التأهيل البدني إلى مَن أصيبوا إصابات خطيرة أو بُتر أحد أطرافهم. كما نساعد في إصلاح البنية التحتية وتحديثها وتحسين نوعية مرافق الصرف الصحي في الأماكن التي يمكث فيها المهاجرون خلال رحلتهم ■

REUTERS

من هم المهاجرون؟

«المهاجرون هم الأشخاص الذين يغادرون مناطق إقامتهم المعتادة أو يفرون منها للذهاب إلى أماكن جديدة –عادة ما تكون في الخارج – التماسًا لآفاق أفضل وأكثر أمنًا. ويمكن أن تكون الهجرة طوعًا أو كرهًا، ولكنها تجمع في معظم الأحيان بين خيارات وقيود متنوعة. وعليه، فإن هذه السياسة تشمل بين جملة فئات العمال المهاجرين، والمهاجرين عديمي الجنسية، والمهاجرين الذين تعتبرهم السلطات العامة غير شرعيين. كما تهتم هذه السياسة باللاجئين وملتمسي اللجوء، [بصرف النظر عن كونهم] يشكلون فئة خاصة بموجب القانون الدولي».

الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، سياسة الهجرة، 2009

عمر مكي*

هل يوفر القانون الدولي الإنساني

قبل أكثر من سبعين عامًا، قدمت «**رينيه مارغريت كريمر**» (Renee-Marguerie Frick-Cramer) وصفًا مؤثرًا لمشهد أزمة اللاجئين المرعبة في القارة الأوروبية بفعل الحرب العالمية الثانية. كتبت **كريمر** «**يتفرق الآباء والأطفال والأزواج والزوجات والأشقاء والشقيقات عن بعضهم البعض، شأنهم شأن أوراق الأشجار قبل أن تعصف بها الرياح في فصل الخريف، وتسوقهم الأقدار إلى مشارق الأرض ومغاربها دون أن يحدوهم أدنى أمل في أن يجمعهم لقاءٌ جديد وسط هذه الفوضى العارمة**». نشرت **كريمر** هذه الكلمات في العام 1944، وبعدها بفترة وجيزة وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها. حينئذ، ذكرت إحصاءات أن قرابة ثلاثين مليون شخص فروا من ديارهم بسبب الحرب. وإذا أضفنا إلى هذا الرقم أسرى الحرب الذين لم يتمكنوا من العودة إلى ديارهم لأسباب سياسية بالإضافة إلى المعتقلين المدنيين والمرحلين من بلدانهم وعمال السخرة ومن كتبت لهم النجاة من أهوال معسكرات الاعتقال النازية، سنجد أن العدد يفوق الخمسين مليون شخص، ما بين مشرد بسبب القتال الطاحن أو مكرهٍ على الفرار أو مدفوعٍ بالذعر أو واقعٍ في الأسْر. ولَم يُكتب لحوالي نِصف هذا العدد أن يرى موطنه مرة أخرى.

AFP

نستعيد هذه الأيام مشاهد مماثلة. فقد رأينا جميعًا الصور التي تُعتصر لها القلوب للاجئين سوريين معدمين لا يملكون من حطام الدنيا شيئًا، تتلاطمهم أمواج المجهول قبالة سواحل أوروبا. ولا ينبغي أن تبقى قلوبنا متحجرة ونحن ننظر إلى المعاناة التي يكابدونها، وليس لنا أن نغض الطرف عن العواقب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تحدثها هذه التدفقات السكانية على البلدان المضيفة، التي بات عليها بين عشية وضحاها أن تتعامل مع هذه الموجات المتدفقة من السكان الذين يحتاجون إلى مساعدة.

اعتمد المجتمع الدولي في أعقاب الحرب العالمية الثانية مجموعة من الصكوك التي تهدف إلى كفالة الحماية للاجئين، كان أهمها **الاتفاقية الخاصة بوضع اللاجئين** والمؤرخة في 28 تموز/يوليو 1951. يضاف إلى ذلك مجموعة من الصكوك الدولية لحقوق الإنسان التي توفر حماية وأكثر تحديدًا وتفصيلًا للاجئين والنازحين. ولكن لمَّا كان الهدف الأساسي من النزاعات المسلحة الحالية هو طرد السكان من أوطانهم، فإن هذا يدفعنا إلى التساؤل حول ما إذا كان القانون الدولي الإنساني يعالج هذه الظاهرة الشائكة؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، فما هي الحماية التي يوفرها القانون الدولي الإنساني للاجئين والنازحين؟ وكيف يوفر الحماية لمجموعات السكان المدنيين التي تُضطر إلى الفرار؟ وما هي الحماية التي يوفرها لمن هجروا أوطانهم وما علاقة تلك الحماية بقانون اللاجئين وغيره من صكوك حقوق الإنسان؟

إشارات بسيطة

إذا نظرنا عن قرب إلى **اتفاقيات جنيف** وبروتوكوليها الإضافيين فسيتبين لنا أنها تتضمن إشارات بسيطة إلى اللاجئين والأشخاص غير المنتمين لأية دولة، دون أي إشارة محددة إلى النازحين. فهل يدفعنا هذا إلى استنتاج أن القانون الدولي الإنساني لا يوفر حماية للاجئين والنازحين الذين يشكلون الكتلة الأكبر من ضحايا الحرب وتكون معاناتهم هي المصدر الأكبر للألم؟ الإجابة قطعًا هي لا. فاللاجئون والنازحون هم من السكان المدنيين، وبالتالي فهم مشمولون بحماية جميع أحكام القانون الدولي الإنساني التي توفر الحماية للمدنيين في زمن الحرب.

يهدف القانون الدولي الإنساني في المقام الأول إلى الحيلولة دون اقتلاع المدنيين من أوطانهم. وتنص كثير من أحكام القانون الدولي الإنساني، لا سيما **اتفاقية جنيف الرابعة** لعام 1949 **والبروتوكول الإضافي الأول** لعام 1977، على توفير الحماية للمدنيين من أضرار العمليات العدائية وبشكل خاص مخاطر النزوح والهجرة من بلدانهم. وبالتالي تُحظر الهجمات العشوائية والهجمات الموجهة ضد المدنيين وكذلك أيضًا الأعمال الانتقامية ضد السكان المدنيين وارتكاب أعمال العنف أو التهديد بارتكابها بغرض بث الذعر بين السكان المدنيين. ولا يجوز بأي حال

تظل الحرب دائمًا سببًا رئيسًا لهجرة السكان ونزوحهم بأعداد ضخمة. وقد أسهم التغير الجذري الذي طرأ على طبيعة النزاعات في توسيع نطاق الأضرار الناجمة عن الحروب في هذا الصدد ولا سيما انتشار الحروب الداخلية التي تندلع لأسباب عرقية أو دينية والتي تحول فيها ترحيل السكان من ديارهم إلى هدف من أهداف الحرب وليس مجرد نتيجة من نتائجها.

* المستشار الإقليمي لشؤون القانون الدولي الإنساني في اللجنة الدولية للصليب الأحمر-القاهرة

الحماية للمهاجرين؟

من الأحوال أن تصبح الأعيان المدنية هدفًا للهجمات أو الأعمال الانتقامية، فالهجمات يجب أن تقتصر على الأهداف العسكرية فقط. ويُحظر أيضًا اللجوء إلى تجويع السكان المدنيين كوسيلة من وسائل الحرب أو تدمير المحاصيل الزراعية والأعيان التي لا غنى عنها لبقاء السكان المدنيين على قيد الحياة. ويكفل القانون الدولي الإنساني الحماية للمدنيين الذين يقعون في قبضة العدو، سواء بسبب وجودهم على أراضي العدو وقت اندلاع الأعمال العدائية أو بسبب إقامتهم في الأراضي المحتلة. ومن حق أي شخص يرغب في مغادرة أراضي العدو وقت اندلاع الأعمال العدائية، مغادرتها، ما لم تكن مغادرته تتعارض مع المصالح الوطنية للدولة المعنية. ويجب أن تتم المغادرة أو الانتقال في ظروف مرضية من جهة السلامة والشروط الصحية والأمن والتغذية.

يحظر القانون الدولي الإنساني في حالة الاحتلال النقل القسري للسكان المدنيين من أراضيهم أيًّا كانت دواعيه. وإذا لم يكن هناك بدٌّ من إجلاء السكان لأسباب تتعلق بأمنهم أو لأسباب عسكرية قهرية، فلا يجوز أن يترتب على عمليات الإخلاء نزوح الأشخاص المحميين إلا في إطار حدود الأراضي المحتلة، ما لم يتعذر ذلك من الناحية المادية. ويجب إعادة السكان المنقولين على هذا النحو إلى مواطنهم بمجرد توقف الأعمال العدائية في هذا القطاع. وأيضًا «لا يجوز نقل أي شخص محمي في أي حال إلى بلد يخشى فيه الاضطهاد بسبب آرائه السياسية أو عقائده الدينية». وبالتالي يجب الإشارة إلى أن اتفاقيات جنيف لعام 1949 اعترفت بمبدأ عدم الإعادة القسرية قبل أن يُسطَّر هذا المبدأ في اتفاقية اللاجئين لعام 1951.

أحكام مهمة

ومن نافلة القول إن أحكام الاتفاقيات المعمول بها في النزاعات المسلحة غير الدولية أقل تفصيلًا وتقنينًا من الأحكام التي تسري في النزاعات الدولية، إذ إن الدول تعزف عن تحمل الالتزامات ذاتها في حالات النزاع الداخلي كما هو الحال في النزاع الدولي. كما تنص المادة (17) من البروتوكول الإضافي الثاني (المنطبق في النزاعات المسلحة غير الدولية) على أنه: «لا يجوز الأمر بترحيل السكان المدنيين، لأسباب تتصل بالنزاع، ما لم يتطلب ذلك أمن الأشخاص المدنيين المعنيين أو أسباب عسكرية ملحة. وإذا ما اقتضت الظروف إجراء مثل هذا الترحيل، يجب اتخاذ كافة الإجراءات الممكنة لاستقبال السكان المدنيين في ظروف مُرضية».

وكذلك يتضمن القانون الدولي الإنساني أيضًا أحكامًا مهمة تهدف بشكل خاص إلى حماية اللاجئين والأشخاص غير المنتمين لأية دولة. فإن الفقرة (2) من المادة (70) من اتفاقية جنيف الرابعة والتي قُننت بشكل أوسع في المادة (73) من البروتوكول الإضافي الأول «تُكفل الحماية وفقًا لمدلول البابين الأول والثالث من الاتفاقية الرابعة وذلك في جميع الظروف ودونما أي تمييز مجحف للأشخاص الذين يعتبرون -قبل بدء العمليات العدائية- ممن لا ينتمون إلى أية دولة، أو من اللاجئين بمفهوم المواثيق الدولية المتعلقة بالموضوع.

إشكاليات قانونية

ويمكن القول إن الانطباق المتزامن للأنظمة الثلاثة في زمن النزاع المسلح يمثل الحل والمشكلة على حد سواء. فمما لا شك فيه أنه ليس ثمة فرع واحد يقدم حلًا قاطعًا للتحديات المعاصرة التي تفرضها النزاعات المسلحة. ولا يمكن الوصول إلى الحماية الدولية إلا من خلال نهج متكامل يضم فروع القانون الدولي المنطبق على النزاعات المسلحة. وبالرغم من أنه يُفترض في القانون الدولي الإنساني أنه النظام المصمم خصيصًا للعمل في زمن النزاع المسلح، إلا أنه لا يتبنى أقصى قواعد الحماية. فهو ينص على معيار الحد الأدنى في إطار الحدود الصارمة لنطاقه (أي معاملة غير المواطنين الذين يقعون في قبضة أحد أطراف النزاع). ويتطور الحد الأدنى من الحماية التي يمنحها القانون الدولي الإنساني عن طريق التطبيق التراكمي لفروع القانون الدولي الأخرى المعمول بها (نصوص القانون الدولي الخاصة باللاجئين). ومع ذلك لا توفر هذه النصوص الحماية الكاملة للأشخاص الفارين من النزاعات المسلحة. والأسوأ من ذلك، أن القانون الدولي الإنساني وقانون اللاجئين، على حد سواء، يبدوان وكأنهما لا يراعيان ولو نسبيًا الاحتياجات الخاصة للاجئين أثناء الحرب، أو ظروفهم بعد انتهاء الحرب. وقد أشار الفقيه القانوني والتر كالين (Walter Kalin) إلى أن الفهم التقليدي للعلاقة بين القانون الدولي الإنساني ونصوص القانون الدولي الخاصة باللاجئين، يذهب إلى أن هذا الأخير لم يُوضع بالأساس لمعالجة معاناة من اضطروا إلى الفرار من أخطار الحرب ويسعون إلى اللجوء في الخارج. والقانون الدولي الإنساني في الوقت ذاته لا يوفر أي حماية لهذا القطاع الكبير من الأشخاص الذين يحتاجون إلى حماية دولية. وعليه يمكن القول إن القانون الدولي الإنساني يتضمن العديد من الأحكام التي توفر الحماية للاجئين والنازحين. إلا أن هذه الأحكام لا يمكن النظر إليها بأي حال من الأحوال بمعزل عن اتفاقية اللاجئين لعام 1951 وغيرها من الصكوك الدولية لحقوق الإنسان التي توفر حماية أكثر تحديدًا وتفصيلًا للاجئين والنازحين ■

REUTERS

عدنان حزام*

في أقل من عام،
دخل اليمن نحو 37 ألف لاجئ

التماس الملجأ في يمن الحرب:

حياة الشقاء من أجل البقاء

في ظل النزاع الدائر حاليًّا في اليمن، تتضاعف معاناة اللاجئين في مختلف المدن. فر هؤلاء من بلدانهم أملًا في الإبحار نحو حياة أفضل، لكن الواقع المثقل بالصراعات المسلحة والوضع الاقتصادي الخانق يفرض على اللاجئين تعاسة مزدوجة.

REUTERS

هناك أكثر من مليون لاجئ في بلد يُعد الأفقر في العالم العربي

شكل اليمن، منذ تسعينيات القرن الماضي، مقصدًا للهجرة، ومحطة عبور للكثير من اللاجئين، خاصة أولئك الذين هربوا من جحيم الصراعات في منطقة القرن الأفريقي كالصومال وإريتريا وإثيوبيا. وطيلة تلك السنوات، بات اليمن محطة استراتيجية في إدارة تهريب المهاجرين ما بين دول أفريقيا والجزيرة العربية. ولطالما اشتكى مسؤولون يمنيون من موجات الهجرة واللجوء إلى بلد يُعد الأفقر في العالم العربي، حيث يضرب الفقر أكثر من نصف سكانه.

والآن، وفي ظل الصراع المستعر في اليمن، تطالعك مشاهد لمهاجرين ولاجئين في شوارع العاصمة اليمنية **صنعاء**. بعضهم يطلب المساعدة من أجل تأمين قوتهم اليومي، وآخرون يصارعون لإيجاد فرصة عمل والتأقلم مع الواقع الجديد.

من بين هؤلاء **حيدر محمد سيف**، وهو إثيوبي الجنسية يبلغ من العمر 35 عامًا. يصف **سيف** انتقاله من بلاده إلى اليمن بالقول إنه انتقل «**من المزارع الخضراء في إثيوبيا إلى نار شوارع الهجرة في صنعاء**». التمس **سيف** في اليمن ملاذًا بسبب الأوضاع السياسية المضطربة في إثيوبيا. هجر مزرعته الخاصة والحياة الوادعة في قرية **ذدر** بريف إثيوبيا وترك خلفه أباه وأمه. وصل **سيف** مدينة **صنعاء** في العام 2009. كانت الظروف جيدة في البداية، فقد اشتغل عاملًا للنظافة في مستشفيات عدة، ثم تزوج وأنجب طفلين: محيي الدين وخالد. لكن تغير الوضع الآن في ظل الصراع المستعر في البلاد، يقول **سيف**: «**الوضع في اليمن هذه الأيام سيِّئ، ولا يوجد عمل. أعتمد على ما يقدمه الناس لي من مساعدات كي أطعم أولادي**». ويتابع: «**ما يشغل تفكيري طول الوقت هو مصير أولادي الصغار في الظروف الحالية. الوضع مأساوي لأبناء البلد، فكيف يكون لي وأنا مهاجر؟ قبل هذا النزاع كان هناك العديد من فرص العمل. الآن لا يوجد شيء**».

ومع ذلك، لم يمنع تفاقم الصراع في اليمن، في الشهور الأخيرة، تدفق المهاجرين واللاجئين من القرن الأفريقي. ويدخل معظم هؤلاء البلاد عن طريق مهربين يطلبون مبالغ مالية كبيرة. وفي حزيران/ يونيو الماضي، قال منسق الأمم المتحدة للشؤون الإنسانية في اليمن **يوهانس فان در كلاو** لوسائل الإعلام، إن «**37 ألف وافد جديد وصلوا إلى اليمن منذ الأول من كانون الثاني/ يناير من العام الحالي (2015)، عشرة آلاف منهم وصلوا منذ 26 آذار/ مارس، أي نحو الثلث، منذ تصاعد وتيرة النزاع في البلاد**». ووفقًا لإحصاءات رسمية يمنية نُشرت منتصف العام، فقد تجاوز عدد اللاجئين في اليمن المليون لاجئ. وتقول تقديرات رسمية وغير رسمية إن أعداد المهاجرين غير المسجلين لدى الجهات الحكومية في اليمن، أو لدى مفوضية شؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، ربما يصل إلى 750 ألف شخص.

ويعيش هؤلاء اللاجئون والمهاجرون ظروفًا معيشية صعبة، على غرار **كين فارع**، وهي لاجئة إثيوبية تبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا. تقول **كين** إن الحياة لم تبتسم لها منذ عشر سنوات. في العام 2006، اندلع النزاع في منطقة **دولو**، بإقليم **أوغادين** المحاذي للحدود الصومالية في المنطقة المتنازع عليها بين البلدين. ونتيجة لهذا النزاع، دُمرت القرية التي تنتمي لها **فارع**، وقُتل المئات من أبناء القرية، من ضمنهم معظم أفراد عائلتها. ومثل كثيرين من الناجين، قررت **فارع** الهروب من القرية والذهاب إلى مدينة **بوصاصو** الصومالية بحثًا عن الأمان مع بناتها الأربع وأخيها الأصغر. تقول **فارع**: «**في بوصاصو كان الوضع سيئًا، فلا يوجد عمل، ولم أستطع تلبية احتياجات أسرتي الصغيرة. مكثت عامين في بوصاصو وكانت الحياة لا تحتمل. قررت بعدها الرحيل. تعرفت على أحد أصحاب القوارب التي تقوم بتهريب الأشخاص إلى السواحل اليمنية. اتصل بي المهرب في إحدى الليالي، وقال لي كوني مستعدة مع أطفالك غدًا سننطلق إلى اليمن**». استغرقت الرحلة، كما تقول **فارع**، تسعة أيام، في قارب مزدحم بالعشرات، وبكميات قليلة جدًّا من الطعام. لكن في النهاية وصل الجميع إلى سواحل **شبوة** بالقرب من مدينة **بير علي**. تستدعي **فارع** تلك اللحظة من ذاكرتها: «**وصلنا اليمن بلا مال أو طعام أو أمل. تواصلت مع بعض أقارب لي في صنعاء ممن سبقوني في الهروب. أرسلوا لي بعض المال الذي تمكنت من خلاله من السفر، أنا وأسرتي، إلى صنعاء**».

كانت الأمور جيدة لـ**فارع** لدى وصولها إلى **صنعاء**. فقد شعرت، لأول مرة منذ وقت طويل، بالأمان والاستقرار. وبمساعدة أقربائها بدأت بالعمل في المنازل لإطعام أسرتها الصغيرة. لكن لم يدم الحال هكذا، فمع تصاعد النزاع في اليمن، عجزت **فارع** عن الحصول على أي عمل مع ارتفاع النفقات ودخول بناتها إلى المدارس. وهي لا تزال تعاني من أجل إطعام أسرتها، والوفاء باحتياجاتهم الأساسية ■

REUTERS

REUTERS

* مسؤول الإعلام والنشر في بعثة اللجنة الدولية في صنعاء

سينتيا عون*
وريهام باعشر**

وافدون إلى الخليج: أعداد ضخمة وتحديات إنسانية كبيرة

مع الطفرة النفطية التي شهدتها دول الخليج العربية في سبعينيات القرن الماضي، زاد طلب هذه الدول على الأيدي العاملة، رغبةً في تحفيز النمو الاقتصادي. وبالفعل جذب هذا التزايد في الطلب ملايين العمال من الدول ذات الدخول المنخفضة، وهو ما أدى إلى ظهور احتياجات إنسانية لهؤلاء المهاجرين كان للجنة الدولية دور في الاستجابة لها.

REUTERS

يعيش اليوم في دول الخليج العربية ما يقرب من 24 مليون مهاجرٍ من دول ذات دخول منخفضة من آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا. يشكل هؤلاء 48 في المائة من مجموع سكان هذه المنطقة (في قطر وحدها يبلغ عدد المهاجرين حوالي 87 في المائة من عدد السكان). توجه هؤلاء المهاجرون– ومعظمهم من الهند وبنغلاديش وباكستان ونيبال والفليبين ومصر– صوب الخليج أملًا في تحسين ظروفهم وظروف أسرهم المعيشية. ويعمل قطاع كبير منهم في أنشطة البناء والخدمات، بما في ذلك العمل المنزلي. ويتم تنظيم الهجرة الوافدة إلى غالبية دول مجلس التعاون الخليجي على أساس قانون الكفالة الذي يحدد قواعد الإقامة والعمل. وعادةً ما يكون الكفيل هو رب العمل، سواء كان مواطنًا أو شركةً أو جهةً حكومية. وهناك العديد من النماذج التي حققت نجاحًا في مسعاها لتحسين وضعها الاقتصادي، ولكن هناك، من ناحيةٍ أخرى، تحديات تواجه المهاجرين في رحلاتهم، كانفصام الروابط العائلية والاعتقال والإبْعاد، وفي حالات أخرى الاستغلال والإتجار بالبشر. كما أن بعض هؤلاء المهاجرين يواجهون أيضًا الضرر النفسي والوصمة الاجتماعية التي تلاحقهم في حال عودتهم إلى بلادهم دون تحقيق أهدافهم.

تقدم البعثة الإقليمية للجنة الدولية للصليب الأحمر لدول مجلس التعاون الخليجي، التي تغطي دول الكويت وقطر والمملكة العربية السعودية والبحرين والإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان، المساعدة للمهاجرين من خلال استراتيجية لبرنامج الحماية تركز على احتياجات المهاجرين الإنسانية في أماكن الاحتجاز والإبْعاد، ومن خلال خدمات إعادة الروابط العائلية.

الدعم في أماكن الاحتجاز

جرى تعريف فئة المهاجرين بوصفها من الفئات الأكثر استضعافًا. وبشكل عام يصبح المهاجرون غير موثّقين عندما يغادرون كفيلهم أو يتجاوزون مدة صلاحية الإقامة، مما يعرض المهاجر للتوقيف والإبْعاد. لهذا تقوم **اللجنة الدولية**، بالتنسيق الوثيق مع السلطات المعنية في الكويت وقطر والبحرين، بزيارات منتظمة إلى أماكن الاحتجاز ومراكز الإبْعاد. ومن خلال هذه الزيارات، تتطرق **اللجنة الدولية** إلى مختلف ظروف الاحتجاز، بما في ذلك الظروف المعيشية للاحتجاز، وتوفير الرعاية الصحية، والتواصل المُمنهج بين المحرومين من حريتهم وأسرهم. ومتى كان الأمر مناسبًا، يقدم **الصليب الأحمر** توصيات إلى السلطات بشأن كيفية تحسين

* مسؤولة قسم إعادة الروابط العائلية في بعثة اللجنة الدولية الإقليمية لدول مجلس التعاون الخليجي
** مندوبة الحماية في البعثة نفسها.

REUTERS

REUTERS

هناك تحديات تواجه المهاجرين في بلدان الخليج العربي كتعطيل الروابط العائلية والاعتقال والإبْعاد، وأحيانًا الاستغلال والإتجار بالبشر

الظروف. وقد ساعدت اللجنة الدولية خلال عامي 2014 و2015 المهاجرين المحرومين من حريتهم على تبادل أكثر من 230 رسالة صليب أحمر مع أسرهم في مدغشقر وبلدان أخرى كساحل العاج والكاميرون وتوغو وأوغندا. وفي بعض الحالات، مكنت اللجنة الدولية المهاجرين في أماكن الاحتجاز من الاتصال بأسرهم عبر الهاتف لإخطارهم بمكان وجودهم وطمأنتهم على وضعهم.

كما تسجل اللجنة الدولية الأجانب في أماكن الاحتجاز لإبلاغ سفاراتهم وكذلك لإعلام **المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين** في حال وجود طالبي اللجوء ووفقًا لمعايير المفوضية. ومنذ العام 2014، ازداد الدعم الذي تقدمه اللجنة الدولية لسلطات الاحتجاز في الكويت عن طريق ربط المهاجرين الذين ليس لديهم تمثيل دبلوماسي في الكويت–مواطنو أوغندا ومدغشقر ومالي وغانا– مع أقرب السفارات لهم في **الرياض** في المملكة العربية السعودية. كما سهلت اللجنة الدولية منذ العام 2014 إصدار 30 وثيقة سفرٍ لمرحَّلين، أغلبهم من النساء المنتميات إلى مدغشقر ومالي وغانا وأوغندا عن طريق الاتصال بالسفارات المعنية في الرياض بسبب عدم وجود سفارات لهم في الكويت. ويقوم مندوبو اللجنة الدولية بتسجيل هؤلاء الذين يحتاجون إلى وثيقة سفر للتأكد من أنهم يريدون العودة الطوعية إلى بلدانهم الأصلية. يلاقي مثل هذا النشاط تقديرًا كبيرًا من جانب المهاجرين المحرومين من حريتهم ومن جانب السلطات، لأنه يساعد على الإسراع بترحيل المهاجرين الذين يرغبون بالعودة إلى بلدانهم. في غياب مثل هذه الآلية، قد تطول إقامة هؤلاء المهاجرين في مراكز الإبْعاد ومراكز الشرطة إلى حين إصدار وثيقة سفر، وهذه أمور تؤثر سلبًا على نفسية المهاجر وعلى أسرته. ومن أمثلة ذلك، الدعم الذي قدمته اللجنة الدولية لمهاجرة من نيبال، كانت موقوفة مع طفلها المريض في مركز إبْعاد في الكويت. زار مندوبو الحماية وكذلك طبيب اللجنة الدولية هذه السيدة لمتابعة صحتها وصحة الطفل إلى حين تحديد موعد السفر. وبالتعاون مع بعثة **اللجنة الدولية في النيبال** و**جمعية الصليب الأحمر النيبالي**، أمكن مساعدة هذه السيدة على التواصل مع أسرتها في نيبال، وجرى استقبالها في المطار بالرغم من تزامن عملية الترحيل مع الهزة الأرضية التي ضربت نيبال في نيسان/ أبريل 2015.

ومن الأمور الأخرى التي بادرت اللجنة الدولية بفتح الحوار فيها مع السلطات في دول الخليج هو احترام مبدأ عدم الترحيل القسري للمهاجرين. ويقتضي مبدأ عدم الإعادة القسرية من أية دولة –بموجب القانون الدولي– الامتناع عن إبْعاد أي شخصٍ خاضع لسلطتها إلى دولةٍ أخرى في ظل وجود احتمالات حقيقية لتعرُّضه للحرمان التعسفي من الحياة (القتل) أو للتعذيب أو لأي شكل من أشكال المعاملة السيئة الأخرى أو للاضطهاد. وفي هذا الإطار تقوم اللجنة الدولية بالتواصل مع السلطات من خلال المناقشات والتنسيق مع المنظمات الدولية الأخرى المخوَّلة بمتابعة هذا الشأن لضمان اتخاذ إجراءات مناسبة تضمن الحفاظ على هذا المبدأ.

إعادة الروابط العائلية

وفيما يخص عمل اللجنة الدولية مع المهاجرين خارج أماكن الاحتجاز، فهو يتمحور أساسًا حول الاحتياجات في مجال إعادة الروابط العائلية. وترتكز الاستجابة لهذه الاحتياجات على التنسيق والتعاون بين جمعيات الهلال الأحمر في دول مجلس التعاون الخليجي وبعثة اللجنة الدولية. وفي حين يستفيد عدد كبير من المهاجرين في بلدان مجلس التعاون من التقنيات الحديثة في وسائل الاتصال بما يكفل لهم التواصل بشكل منتظم مع أسرهم في البلد الأم، قد تتعرض الفئات الأكثر ضعفًا إلى احتمال انقطاع أخبارهم عن ذويهم. وتشمل هذه الفئات المهاجرين غير الموثقين وفي بعض الحالات العاملين المنزليين. تتلقى اللجنة الدولية وجمعيات الهلال الأحمر في دول مجلس التعاون طلبات بحث من أسر فقدت الاتصال بذويها من المهاجرين من جنسيات مختلفة ممن يُعتقد بوجودهم في دول منطقة الخليج. وتجمع بعثات اللجنة الدولية والجمعيات الوطنية خارج منطقة الخليج هذه الطلبات من الأسر الموجودة، إما في البلد الأم أو في بلدان أخرى هاجرت إليها هذه العوائل. ويمكن متابعة طلبات البحث في دول مجلس التعاون من خلال الزيارات الميدانية، والمتابعة مع جهات مختلفة كالمستشفيات وشركات التوظيف والسلطات الرسمية إذا دعت الحاجة. وبالرغم من الجهود المبذولة في هذا المجال، ترتبط التحديات الأساسية بصعوبة الوصول في بعض الأحيان إلى فئات مُعينة من المهاجرين لا سيما المهاجرين غير الموثقين.

وتُعد استجابة اللجنة الدولية وجمعيات الهلال الأحمر في مجلس التعاون، إثر الكوارث الطبيعية التي تحدث في البلدان المُرسلة، من أبرز الأنشطة في مجال الروابط العائلية. ونذكر هنا على سبيل المثال استجابة الهلال الأحمر الكويتي والهلال الأحمر القطري واللجنة الدولية إثر إعصار الفلبين في تشرين الثاني/ نوفمبر 2013، وإثر زلزال النيبال في نيسان/ أبريل 2015. فقد تحقق التواصل مع الجاليات الفلبينية والنيبالية من خلال التجمُّعات والجمعيات الخاصة بالجاليتين والسفارات لإعلامهم بتوفر خدمات الروابط العائلية. وجرى استقبال ومتابعة طلبات البحث. كما أُتيح الاتصال إثر زلزال النيبال لعدة أشخاص في الكويت وقطر مما مكنهم من التواصل مع ذويهم والاطمئنان عليهم. إن هذه الاستجابة عقب الكوارث الطبيعية سمحت للجنة الدولية وجمعيات الهلال الأحمر بالوصول إلى فئات واسعة من المهاجرين والترويج والتعريف بشكل فعَّال بخدمات الروابط العائلية المتوفرة بشكل عام للمهاجرين وغيرهم من الفئات في الدول المعنية.

وشهد العام 2015 ارتفاعًا في أعداد العائلات الموجودة في بلدان مجلس التعاون الخليجي، والتي فقدت الاتصال بذويها من الجنسية السورية وغيرها من الجنسيات إثر سفرهم إلى أوروبا إما من خلال سفر ذويهم بحرًا إلى إحدى الدول الأوروبية، أو من خلال وجودهم في إحدى بلدان العبور في أوروبا. وقد توجهت هذه العائلات إلى الجمعيات الوطنية في منطقة الخليج أو اللجنة الدولية لطلب المساعدة في البحث عن أفراد العائلة. وتجري متابعة هذه الحالات مع الجمعيات الوطنية المعنية في الدول الأوروبية وذلك في إطار التنسيق بين مختلف مكونات شبكة الروابط العائلية بما يخص حالات الهجرة إلى أوروبا. وبالرغم من التحديات الكبيرة، تسعى اللجنة الدولية وجمعيات الهلال الأحمر إلى إعلام العوائل بشكل مستمر بالخطوات التي أُتخذت للبحث عن ذويهم.

إن النزاع المسلح في سورية دفع بالعديد من السوريين إلى الفرار خارج بلدهم أو إلى النزوح داخل سورية. لذلك نشطت اللجنة الدولية خلال العام 2015 في إعلام وطمأنة أكثر من 100 أسرة في دول مجلس التعاون على وضع ومكان وجود ذويهم من اللاجئين السوريين. بالإضافة إلى ذلك، تصدر بعثة اللجنة الدولية الإقليمية وثائق سفر لأشخاص أُعيد توطينهم في بلد ثالث. كما تتلقى وتتابع البعثة، وبشكل مستمر طلبات عديدة تتعلق بمتابعة الوضع الصحي لبعض المهاجرين أو طلب مساعدة لأشخاص لجأوا إلى بلدان مجلس التعاون ■

التغريبة السورية:

عندما يتحول نصف الشعب إلى نازحين

إبراهيم دراجي*

«الابن الأكبر لجأ إلى ألمانيا، أما الأوسط ففي النمسا، في حين ينتظر الأصغر في تركيا. وما بين الأوسط والأصغر خسرت اثنين في الحرب والثالث مفقود. أما البنات فقد استقررن مع أزواجهن في المخيمات المنتشرة على الحدود في لبنان والأردن»، كان هذا هو الجواب الذي سمعته من سيدة مسنَّة في العاصمة السورية **دمشق**، عندما سألتها لماذا لم يحضر أحد معها لمساعدتها في حمل صندوق مساعدات غذائية. انتظرت السيدة المسنَّة ساعات للحصول عليه وكانت عاجزةً عن تحريكه.

يختصر هذا الجواب مأساة المدنيين السوريين. فبعد خمس سنوات من الحرب التي تشهدها البلاد منذ العام 2011، تشتتت الأسر السورية وتوزعت في العديد من دول العالم بقاراته المختلفة. ويذوي شيئًا فشيئًا أمل لمِّ شمل عائلات لم يعد يجمعها إلا اتصالات هاتفية محدودة، وبضع ذكريات، وبقايا صور تحمل ابتسامات باتت من الماضي السوري.

تشير أرقام منظمة «**الأمم المتحدة**» إلى أن أكثر من نصف الشعب السوري أصبح لاجئًا في دول العالم المختلفة، أو نازحًا داخل بلده في حين أكد الأمين العام للأمم المتحدة **بان كي مون** «**أن نحو 12,2 مليون شخص في سورية يحتاجون لمساعدات بينهم أكثر من 5 ملايين طفل**». طبعًا ليس ثمة حاجة للسؤال عن أسباب اللجوء أو النزوح السوري، فنشرة أخبار واحدة تكفي لإدراك المأساة التي يعاني منها السوريون منذ خمس سنوات. وهي مأساة مستمرة، زاد من قسوتها أن الحرب •••

REUTERS

تحول أكثر من نصف الشعب السوري إلى لاجئ أو نازح بسبب الحرب. يعيش هؤلاء في ظل معاناة إنسانية تستعصي على الوصف، فمعاناة السوريين وإن بدأت بالحرب، إلا أنها لا تنتهي بالوصول إلى بلد اللجوء أو مكان النزوح حيث تتواصل المتاعب والتحديات طوال رحلة الهروب وتكتمل وتستمر حتى عند الوصول إلى المكان المنشود.

* أكاديمي سوري

التي تشهدها بلادهم هي حرب مدن، انعدم فيها التمييز بين المدنيين وسواهم، فلا فئات محمية تُصان، ولا شعارات أو قوانين إنسانية تحترم. وهو ما سرَّع من وتيرة اللجوء في الأشهر الماضية، خاصةً، بعد أن فقد السوريون الأمل بحل قريب أو سلام آتٍ. المفارقة أن معاناة السوريين وإن بدأت بالحرب، إلا أنها لا تنتهي بالوصول إلى بلد اللجوء أو مكان النزوح، حيث تتواصل المتاعب والتحديات طوال رحلة الهروب وتكتمل وتستمر حتى عند الوصول إلى المكان المنشود.

في الداخل السوري تشير أرقام **مفوضية الأمم المتحدة للاجئين** إلى وجود قرابة 7,6 مليون سوري باتوا نازحين داخل البلاد. علمًا أن رحلة النزوح لم تعد مجدية كثيرًا بسبب محدودية الأماكن الآمنة «نسبيًّا» التي يمكن النزوح لها، وهو ما جعل الكثيرين يعيشون تجربة النزوح أكثر من مرة بسبب تدهور الوضع الأمني في كل مكان نزحوا إليه. وهي معاناة تتكرر دوريًّا مع تضاؤل الموارد المالية، ومخاوف من النزوح إلى أماكن محددة قد يتعرضون فيها للأذى والاستهداف، فضلًا عن خطورة رحلة النزوح ذاتها أو وضع قيود عليها ومنعها في بعض الأحيان.

أمَّا بالنسبة لخيار اللجوء فهو لم يعد متاحًا بالنسبة للكثيرين بعد أن ضاقت دول الجوار بمن أتاها فعجزت عن تحمل تبعات اللجوء وتكلفته، خاصةً، أن معظم دول الجوار تعاني مسبقًا من أوضاع اقتصادية سيئة، وهو ما دفع بعضها لإغلاق حدودها في أوقات كثيرة أو التشدد في السماح بإدخال الهاربين من نيران الحرب في الداخل السوري، أو التضييق على من دخل فعلًا، لدفعهم إلى التماس اللجوء في مكان آخر وللحد من تدفق اللاجئين المستمر صوب بلادهم. بهذا الصدد تشير أرقام **مفوضية الأمم المتحدة للاجئين** إلى أنه وحتى تشرين الثاني/ نوفمبر 2015 بلغ عدد اللاجئين السوريين المسجلين فعليًّا 4,290,332 لاجئًا سوريًّا. ويشمل هذا الرقم 2,1 مليون سوريٍّ مسجلين من قبل المفوضية في مصر والعراق والأردن ولبنان، و1,9 مليون سوريٍّ مسجلين من قبل حكومة تركيا، فضلًا عن أكثر من 26,700 لاجئ سوري مسجلين في دول شمال أفريقيا.

وفي ظل عدم وجود قوانين وطنية تنظم حالة اللجوء في أغلبية دول الجوار باتت تلك الدول، بالنسبة للكثيرين من اللاجئين السوريين، محطة لجوء أولى، تمهيدًا للوصول إلى الهدف النهائي المنشود وهي دول القارة الأوروبية. فبحسب أرقام **مفوضية اللاجئين**، تقدم 679,140 لاجئًا سوريًّا بطلبات لجوء إلى أوروبا بين نيسان/ أبريل 2011 وتشرين الأول/ أكتوبر 2015. ولا تتحدث هذه الأرقام عمن غرق في رحلة كان يأمل منها النجاة لكنها تُوِّجَت بالموت.

يمر اللاجئون السوريون قبل الوصول إلى بر الأمان الأوروبي برحلة مخاض صعبة وخطيرة، تبدأ بتحدي تأمين نفقات السفر، حيث تبلغ تكلفة وصول اللاجئ الواحد ما بين ثلاثة آلاف إلى تسعة آلاف دولار بحسب

الكثيرون يعيشون تجربة النزوح أكثر من مرة بسبب تدهور الوضع الأمني في كل مكان نزحوا له

REUTERS

«رفاهية» الرحلة وأمانها. وهو مبلغ ينبغي تسليمه للمهربين المنتشرين علانيةً في تركيا وبعض دول الشمال الأفريقي التي تنطلق منها رحلات منظمة صوب دول اللجوء الأوروبية. وفي هذه الرحلة، وقع الكثير من اللاجئين في براثن عصابات منظمة للاتجار بالبشر، امتهنت النصب على اللاجئين واستغلال معاناتهم بغية الحصول على أموالهم دون تسفيرهم، أو إرسالهم في ظل ظروف بالغة الخطورة. وهو ما تكشفه الأنباء الواردة دوريًّا عن غرق المئات من اللاجئين السوريين في مياه البحر الأبيض المتوسط.

تستمر معاناة اللاجئين بعد تجاوز البحر حيث يتعين عليهم عبور عدَّة دول أوروبية في رحلة مخاطر إضافية تزداد قسوتها مع قسوة المناخ، ووجود أطفال ونساء في قوافل اللاجئين. وهي معاناة تضاعفت أيضًا مع تكدس الآلاف على حدود الدول الأوروبية التي لجأ بعضها إلى إغلاق حدودها للتضييق على اللاجئين والحد من استخدامهم أراضيها كدول عبور وصولًا إلى الدولة المستهدفة، وهي غالبًا ألمانيا أو بعض الدول الاسكندنافية التي تحظى بسمعة جيدة في استقبال اللاجئين وتوفير متطلبات الحياة الكريمة لهم. وتكشف روايات اللاجئين السوريين طوال السنوات الماضية عن الكثير من الوقائع التي تختصر محنة الحرب ومآسيها، فكثيرون منهم غادروا منازلهم دون اصطحاب أي وثيقة تثبت شخصيتهم، وبعضهم تزوج أو ولد دون أن يتمكن من توثيق حالته الجديدة. ولتأمين نفقات رحلة اللجوء الباهظة باع معظمهم كل ما يملكه في وطنه ليشتري بالثمن «صفة لاجئ» في بلد آخر. بعض اللاجئين ماتوا في المخيمات بدول الجوار إما بفعل البرد في موجات الثلج القاسية، أو حرق عندما حاولوا أن يشعلوا في خيامهم ما يقيهم قسوة الشتاء. وهناك من ماتوا غرقًا في البحر دون أن يسمع أو يعرف بهم أحد، ودون حتى أن تنتشل جثثهم لدفنها بما يليق بها. بعضهم مات خنقًا بحافلات غير معدة أساسًا لتكديس البشر بها بتلك الطرق اللا إنسانية.

تؤكد كل هذه الوقائع عجز المنظمات الدولية المعنية التي تعاني من نقص الموارد المتاحة لمواجهة الواقع الإنساني المستجد والمتدهور، فضلاً عن فرض الكثير من القيود على عملها. كما تبرز بوضوح إشكالية مدى فاعلية واحترام قوانين الحرب واللجوء. علمًا أن ثمة تحديات إضافية بات يتعين على اللاجئين السوريين أن يواجهوها بعد أن استقروا في دول اللجوء الجديدة كتعلم اللغة، والاندماج الاجتماعي، ومعادلة شهاداتهم العلمية، والحصول على فرصة عمل مناسبة لبدء حياة جديدة. وهي تحديات جعلت الكثير من اللاجئين السوريين يدركون أن معاناتهم لم تنته بالوصول إلى «الحلم الأوروبي» بل ربما تكون قد ابتدأت بالفعل.

تكشف مأساة اللاجئين السوريين بوضوح أن الحرب قد تدمِّر تاريخ البلاد وحاضرها، إلا أن حجم أزمة اللاجئين هذه، سيجعل مستقبل البلاد أيضًا في حالة خطر. وهنا يكمن التحدي الأكبر ■

لتأمين نفقات رحلة اللجوء الباهظة باع معظمهم كل ما يملكه في وطنه ليشتري بالثمن «صفة لاجئ» في بلد آخر

REUTERS

من شاطئ طرابلس اللبناني إلى أوروبا: موسم الرحلات مجهولة المصير

مجد بو مجاهد*

تدفع الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي يعيشها اللاجئون السوريون في لبنان البعض للتفكير جديًّا في عبور البحر كي يصلوا إلى أوروبا. انطلقت حتى الآن عشرات المغامرات «غير القانونية» التي تتأرجح نتائج تفاصيلها بين وصولٍ تائه إلى برٍّ غريب، أو الانتهاء في قعر البحرِ.

«**ليست** الحرب دافعًا وحيدًا للهروب من الشرق الأوسط عبر قوارب غير صالحةٍ للملاحة»، هي على الأقلّ نظريًّةٌ عبَّر عنها النازحون السوريون في لبنان لا إراديًّا، بعد أن سلَّموا للقدر مهمَّة نسج تفاصيل ما تبقَّى لهم من سنواتٍ على قيد الحياة. قسمٌ لا يستهان به يرغب في الهروب بعيدًا عن «وطن الأرز» والوصول إلى أرض أوروبا، كما لو أن حالهم لا تختلف عن مصير أبناء بلدهم القابعين تحت مرمى النيران في وطنهم الأمّ. من على ميناء مدينة **طرابلس**، عاصمة الشمال اللبنانيِّ، تبدأ الرحلة. بالرغم من سكون الجوِّ وغياب صخب القذائف، إلا أن معاناةً قد تكون أكثر قسوةً من وابل الصواريخ، تدفع اللاجئين إلى ترجيح خيار رحيلٍ يتراقص بين حياةٍ وموت على وقع صدى الموج.

من مختلف المناطق اللبنانيَّة

لا تقتصر ظاهرة الهجرة غير الشرعية على النازحين السوريين الذين يقطنون مدينة **طرابلس** وجوارها، فهي تمتدُّ لتشمل جميع المحافظات اللبنانيَّة. سؤال اللاجئين عن واقع أحوالهم المعيشيَّة، يحمل معه قصصًا مأساويَّة تدخل في مفترقات أوضاعهم الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة الصعبة. حتَّى إن العاملين منهم في لبنان يعبِّرون عن سخطهم ورغبتهم في الإبحار بعيدًا عندما تحين لهم الفرصة. ويروي **بشير**، أحد النازحين الذي يعمل كحاجبٍ في أحد المباني في العاصمة اللبنانيَّة **بيروت**، تجربة أقاربه الذين قرَّروا خوض غمار «القوارب غير الشرعيَّة». يقول **بشير**: «**كنت أعتقد أن الوصول إلى أوروبا سيخلِّص السوريين من المآسي، إلّا أن أقاربي الذين وصلوا إلى ألمانيا، يعيشون وضعًا قاتمًا هناك في ظلِّ حصر نطاق تجوالهم ضمن خيام صغيرة مع ندرة المساعدات الإنسانيَّة**». وعنْ وضعه المعيشيِّ، يسرد حكاية انتقاله في لبنان: «**وصلنا من حلب منذ نحو عام وها نحن نبيت أنا وعائلتي المؤلَّفة من 7 أشخاص في غرفةٍ واحدة تفتقر إلى الخدمات الأساسيَّة، بالإضافة إلى زاويةٍ على شكل مطبخ ومرحاض صغير. وقد صُمِّمت هذه الغرفة لتستوعب شخصًا واحدًا، إلّا أنها تضيق بقاطنيها اليوم. أما أولادي، فيعمل الذكور منهم في نقل البضائع وعلى صهاريج تعبئة المياه بدلًا من وجودهم في المدارس**». هذا الواقع دفع **ببشير** إلى التفكير في خوض غمار «فرصة العمر» كما يسمِّيها بالرغم من ردود الفعل السلبية التي تأتي من «القارة العجوز». يضيف **بشير**: «**لو أنني أملك المبالغ الماليَّة التي تخوِّلني الرحيل مع عائلتي، لخاطرت بحياتي ومشيت. من عاش كلّ هذه الحقبات من الفقر والعوز والهرب تحت وابل القصف، لن يخاف رهبة البحر**».

نقطة الانطلاق

تبدأ تفاصيل المغامرة، من على متن باخرةٍ تقلُّ المسافرين من شاطئ **طرابلس** باتجاه الشواطئ التركية. هذه الرحلات قد تتَّخذ طابعًا «شرعيًّا» في خطواتها الأولى، في حال انطلقت من على ميناء عاصمة الشمال، أو قد تنفَّذ بطريقة «غير شرعيَّة» تتَّسم بالخطورة. ويؤكِّد مصدر في بلديَّة طرابلس أن «**رحلتين أسبوعيتين تبحران من الميناء باتجاه الشواطئ التركيَّة، حيث ينتقل قسمٌ من النازحين الراغبين في الرحيل بصيغةٍ شرعيَّة، ويدفعون تكاليف الرحلة التي تبلغ حوالي 200 دولار أميركي للشخص الواحد، دون وجوب الحصول على «فيزا» لدخول الأراضي التركيَّة ما يسهِّل عليهم عمليَّة الانتقال**». ويلفت المصدر إلى أن «**الطريقة الثانية للوصول إلى تركيا، هي عبر الطرق غير الشرعيَّة، وتنطلق من منافذ بحريَّة على شاطئ طرابلس، حيث يلجأ قسمٌ من النازحين الذين لا يملكون أوراقًا ثبوتيَّة، إلى التسليم بخيار الرحيل على متن قوارب غير صالحةٍ للملاحة، أو بواسطة قوارب مطاطيَّةٍ عائمةٍ على سطح المياه، لا يلتقطها الرادار، ما يسهِّل إمكانيَّة هروبها خلسة. بيد أن القوى الأمنيَّة اللبنانيَّة تبذل جهدًا كبيرًا لمنع هذه العمليَّات، نظرًا لعدم قانونيَّتها من جهة، وتعريض حياة المواطنين للخطر من جهة أخرى**». وعن المخاطر التي تواجه المهاجرين غير الشرعيين، يشير المصدر إلى أن «**مافيات وعصابات منظَّمة تتبنَّى عمليَّات التهريب، آخرها شهدها شاطئ الصرفند، حيث يتلقى المهرِّب مبالغ ماليَّة كبيرة من اللاجئين وينطلق بحمولةٍ تفوق قدرة القارب على الاستيعاب، وقد يمارس فصول الخداع ضدَّ**

REUTERS

* صحافي لبناني

نزلائه، فيتركهم في عرض البحر بعد الابتعاد عن الشواطئ اللبنانيَّة، ويؤمِّن عمليَّة فراره الشخصية من خلال قوارب مساعدة».

وعن أعداد الذين سلكوا طريق البحر من على شاطئ الشمال اللبنانيّ، يرجِّح المصدر نفسه أن «**العدد التقريبيَّ يصل إلى أكثر من 4000 شخص توزَّعوا بين سوريين وفلسطينيين ولبنانيين، فيما انطلقت رحلة الهجرة الأولى منذ 3 أشهر تقريبًا**». أمَّا المرحلة الثانية من المغامرة، فتتمثَّل بعمليَّة الانتقال من تركيَّا نحو شواطئ أوروبا، والتي تتخذ بأغلبيَّتها صفة الرحلات غير الشرعيَّة، حيث يبدأ العدُّ العكسيُّ للمواجهة المحتَّمة، التي تتأرجح نتائج تفاصيلها بين وصولٍ تائه إلى برٍّ غريب، أو الانتهاء في قعر بحرٍ لا يرحم.

الوصول إلى أوروبا

الخطوة المرتقبة التي ينتظرها كلُّ مهاجرٍ مغامر، تكمن في الانطلاق من تركيا إلى المجهول. فماذا في خبايا هذه الرحلة؟ يشير رئيس المركز اللبناني للأبحاث المجتمعيَّة الدكتور **عبدو قاعي**، إلى أن «**الرحلات تجري بسهولةٍ تامّة، حيث إن الحكومة التركيَّة تسهِّل قيامها وتغضُّ النظر عنها، بايعاز من الدول الأوروبيَّة التي تقول إنها ترحِّب بالوافدين إلى أراضيها، وعلى رأسها ألمانيا. في هذه المرحلة، لا يتحمَّل أحدٌ المسؤوليَّة، حيث تنظم الرحلات على متن قوارب قد لا تصلح للصيد. القدر وحده يلعب دوره في الوصول**». وحول انخراط اللاجئين السوريين في لبنان في هذه المغامرة، يقول: «**حرب القذائف والصواريخ ليست الدافع الوحيد للهروب من الشرق الأوسط، حيث إن لبنان يعتبر جزءًا لا يتجزّأ من المنطقة ومن قلب الخريطة التي تعيش أزمات متلاحقة، في ظلِّ أزماتٍ معيشيَّةٍ جمَّة يعانيها اللاجئون، وفي ظلِّ تراجع وتيرة المساعدات المقدَّمة. وهو بالتالي سينخرط لا إراديًّا في هذا الصراع، ويندفع نحو الحلم في الوصول إلى أرض الاستقرار وتغيير واقعه المعيشيِّ المتردِّي، تمامًا كما يفكِّر المواطن السوري الهارب من هول النيران**»، إلا أن النتيجة لا تأتي غالبًا بما تحوكه تفاصيل المخيِّلة.

وعن الحظوظ المهنيَّة والمعيشيَّة التي قد تتاح للاجئين المهاجرين على متن السفن، وإمكانيَّة تحقيق أهدافهم في أوروبا، يذكر **قاعي**: «**المعاملة نفسها يتلقّاها جميع الوافدين، ولا يُنظر إليهم بحسب مستوياتهم العلميَّة أو الاجتماعيَّة، بل كلاجئين هاربين**». ويضيف: «**تكمن المفارقة في أن إمكانيَّة ملاقاة معاملةٍ حسنة اليوم في أوروبا أضحت ضئيلة، بعد تشكُّل رأي عام معارض لاستقبال النازحين في دول القارَّة العجوز، نظرًا للشهرة المتسمة بالفوضى التي اتَّخذتها هذه المسألة إعلاميًّا وسياسيًّا**».

أسبابٌ قاهرة

تعود أسباب تفشّي ظاهرة «الهجرة غير الشرعية» التي يتبنَّاها اللاجئون السوريون في لبنان إلى أسباب تتمثل في تراجع وتيرة المساعدات المقدَّمة إليهم، وتضاؤلها الملحوظ هذا العام في ظل تراجع الدعم المادي. ويشير مصدر في إحدى المنظمات التابعة للأمم المتَّحدة إلى أن «**تراجع التقديمات الاجتماعيَّة المقدَّمة للاجئين يتمثّل فيما يعرف بانخفاض وتيرة توزيع البطاقات البيضاء المخصَّصة لمساعدات التدفئة أو المسكن بقيمة 25 دولارًا شهريًّا، والتي أنشئت أساسًا لحالات استثنائية، بالإضافةً إلى عدم قدرة البطاقات الزرقاء على تلبية حاجات الأفراد، والتي تعطى كنوعٍ من القسائم الشرائيَّة للاستفادة منها في ابتياع منتجات غذائية من المتاجر اللبنانيَّة**». ويقول المصدر الأممي: «**قدرة البطاقة الزرقاء الشرائية تراجعت من 28 إلى 17 دولارًا كمرحلةٍ أولى، حتى وصلت في الفترة الأخيرة إلى 13 دولارًا أميركيًّا**»، مضيفًا إن «**طبيعة الخدمات المقدَّمة إلى النازحين السوريين تختلف بين منطقة لبنانيَّة وأخرى، كالمساعدات التعليمية التي تترجم من خلال نشاطات ترفيهية تتضمَّن دروسًا تلقينية تُعطى لأولاد النازحين في محافظتي بيروت وجبل لبنان، في حين أنهم ينخرطون في المدارس بشكلٍ طبيعيٍّ في محافظتي الشمال والجنوب**».

وفي المقابل، يشهد واقع الهبات والمساعدات المقدَّمة إلى اللاجئين تراجعًا ملحوظًا، حيث لم يجمع الصندوق الخاص الذي أنشأته وأدارته مؤسساتٌ دولية بهدف دعم لبنان ومساعدته فيما يخصُّ أزمات النزوح المتفاقمة ودحر الفساد والتأكيد على وصول المساعدات إلى الجهة المرجوَّة، سوى 50 مليون دولار، وهو رقم خجول بالنسبة إلى أكثر من 1400000 نازح في لبنان، ولا يأتي بنتائج فعَّالة على أرض الواقع.

فرصة لن تتكرَّر!

«**هل من رادعٍ يوقف انتشار ظاهرة لجوء النازحين السوريين إلى تبنِّي الرحلات غير الشرعيَّة إلى أوروبا؟**». سؤالٌ طرحناه على الاختصاصيَّة في علم النفس العيادي الدكتورة **أنيتا توتيكيان** التي تعتبر أنه «**ما من حلٍّ أو نصيحةٍ يمكن إسداؤها إلى شخص مصاب باليأس التام، في حال وجد أمام دربه فسحة أمل. رغم لجوئه إلى المغامرة بحياته، إلَّا أن المواطن المفتقر لأدنى حقوقه المعيشيَّة لن يضع أمامه فكرة الموت، لأن واقعه الذي يجبره على تبنِّي هذه الرحلات أصعب من واقع الموت نفسه**». وتتابع **توتيكيان**: «**بالرغم من غرق عائلاتٍ عديدة في البحر، إلا أن الغالبية وصلت إلى أحضان دول القارة العجوز وحصلت على فرصةٍ كبيرة بالاستقرار، لن تتكرَّر برأيها سوى مرَّة واحدة في العمر. بالتالي، المهاجر يقرأ المشهد العام بنفسه، ولا يحتاج إلى توجيهات أحدٍ في هذا المجال**».

لا نصيحة إذن، ولا حلَّ فعَّالًا يثني اللاجئين السوريين في لبنان عن الإقدام على خطوةٍ كهذه، يقيِّمونها هم كفرصةٍ نادرة في حال توفَّر لهم مورد ماديٌّ. يرحلون بحزنٍ وألمٍ وأسى. وما من حلٍّ أمامهم سوى هذا الخيار، في ظلِّ وضعٍ اقتصاديٍّ قاتم، يفرض نفسه بقوَّة. أما الخيار الأصعب، فيتمثَّل حين يلجأ ربُّ العائلة إلى ترك عائلته في لبنان والتسليم بخيار الرحيل وحيدًا على أمل اصطحابهم إلى أرض الاستقرار الأوروبيَّة يومًا ما ■

ما من حلٍّ أو نصيحة يمكن إسداؤها إلى شخص مصاب باليأس التام، في حال وجد أمام دربه فسحة أمل

نور الواكي

شهادة:

رحلة عبر مراكب الموت

هذه مقتطفات من شهادة متخمة بالتفاصيل، دونها شاب سوري دفعته ظروف الحرب لخوض مغامرة الهجرة «غير القانونية» عبر البحر باتجاه الضفة الأخرى من المتوسط بحثًا عن أمان مفتقد له ولمئات آخرين. يعلم صاحب الشهادة منذ البداية أن نجاح الرحلة سينقله إلى عالم جديد تمامًا، أما إخفاقها فقد يعني نهاية حياته.

REUTERS

... خطر على بالي أن أفتح هاتفي وأخبر حبيبتي وأصدقائي أننا صعدنا إلى المركب هذه المرة، ونجحنا في الخلاص من اليابسة اللعينة. وأنا على سطح المركب تذكرت حديثًا دار بيني وحبيبتي التي كانت تنتظرني على الضفة الأخرى من البحر. وقتها كانت خائفة من محاولتي السفر عبر مراكب الموت. قلت لها إن حبك هو من سيبقيني قويًّا، وسيشعل جذوة الحياة في قلبي التي لن تهدأ إلا حين ألقاك. وفعلًا كان الحب من أقوى العوامل التي دفعتني للصمود والتحدي. هجم أحد الصيادين باتجاهنا، أنا وصديقي، لمحاولتنا فتح أجهزتنا [التليفونات المحمولة]. حاول الاعتداء علينا وتمكن من أخذ هاتف صديقي بينما اشتبكت يداي مع يديه. سقط هاتفي بين قدميَّ، فضاع منه وسط الظلام. أمسكت هاتفي وأخفيته في جيبي. وصلنا إلى القارب الكبير. رُميت الحبال لتثبيت القاربين، لكنهما اصطدما مع بعضهما بشدة، لدرجة أن الصيادين فزعوا من شدة الاصطدام، وبدأوا في الصراخ. لم يستطع الصيادون في كلا القاربين تثبيتهما بسبب هياج البحر. لذا كان علينا أن نقترب إلى حافة القوارب وأن ننتظر لحظة الاقتراب قبل الاصطدام، ونرمي بأنفسنا إلى القارب الآخر في وقت قصير جدًّا وبسرعة كبيرة. ومن لم يكن يملك الجرأة لرمي نفسه والقفز للقارب الآخر، فقد كان الصيادون يلقونه، فيستقبله الصيادون في المركب الآخر. كان هناك خطر على بطيئي الحركة، والمسنين في أن يطبق الحديد على أجسادهم وهم ينتقلون للمركب الآخر، لذلك تطلب الأمر سرعة كبيرة. اقترب دوري أنا وصديقي. تقدمت أمامه ورميت نفسي للقارب الآخر. تعلقت قليلًا فأمسكني الصيادون وأكملوا عملية الرمي، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حفاظًا على حياتي وإفساح المجال لغيري. ثم قادني أحدهم إلى الأسفل.

من مركب لآخر

كان الانتقال للمركب الذي قطع بنا عرض البحر صعبًا للغاية. بعدما صعدت للمركب، وجهوني للنزول إلى غرفة صغيرة في الأسفل. كانت الغرفة مليئة عن بكرة أبيها ولا يوجد سنتيمتر واحد لتضع قدمك. لا بد من أن تدهس على قدم أحدهم أو يده وتستند على رأس أو كتف أحد الناس. جلست جلسة القرفصاء، وكادت رجلاي تلامسان رأسي من ضيق المكان. لم أكن خلال الدقائق الأولى قادرًا على استيعاب الصورة بأكملها. بدأت شيئًا فشيئًا أحدق في وجوه الناس، وإذا بهم كأنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن دوار البحر شديد. حمل كل شخص كيسًا يتقيَّأُ فيه. كانت الأكياس مليئة ووجوه الناس مصفرة. أما أصواتهم فكانت مخيفة من شدتها وقسوتها. أصبحت رائحة المكان لا تطاق في غرفة ضيقة مقفولة. هذا إضافة للمياه التي تجري تحتنا. غطيت وجهي بسترتي وأخذت أتنفس من داخل ثيابي. كنت أحاول أن أبقى صامدًا أمام دوار البحر. أخذت أفكر بشيء خارج الغرفة الموصدة من ثلاث جهات والجهة الرابعة المليئة بالناس. لكن عبثًا كانت محاولتي تلك. فسرعان ما بدأت أشعر بالاختناق والدوران والغثيان. دارت الدنيا أمام عينيَّ، وتداخلت الأصوات مع بعضها البعض إلى أن انهرت تمامًا وبدأت أتقيَّأُ بشدة. كنت في مكاني غير قادر على الحركة وفقدت الشعور بأطرافي مع مرور الوقت. أحسست أن روحي تخرج من جسدي شيئًا فشيئًا من شدة الدوران. تمنيت الموت في تلك اللحظات. أخذت الأفكار تراودني وأخذت أسأل نفسي: هل ما هو قادم يستحق ما أنا فيه؟ ولماذا أختار دائمًا الطريق الصعب؟ كيف أصبحنا– نحن السوريين– نعاني الأمرَّين ونخاطر بأرواحنا ونكابد كل هذه العذابات؟ مرت ساعات الليل قاسية جدًّا. طلع الصباح. في هذه الأثناء، افتقدت صديقي فاضل. لم يكن موجودًا في الغرفة. أصابني الذعر من اختفائه. من المفروض أن يكون بالغرفة معنا مثل كل من قدموا من الطابق العلوي من المركب الأول. ساورتني الشكوك أنه قد سقط في البحر أثناء عملية النقل ولم ينجُ. ازداد قلقي كثيرًا بعد أن صرخت بأعلى صوتي مناديًا عليه لكن دون جدوى. بعدها حاولت استجماع قوتي كي أقف. لم يكن الوقوف سهلًا؛ إذ كان لا بد أن تمسك بكتف أحدهم وتزيح آخر وتدفع بآخر بقوة حتى يتسع لك مجال تتحرك فيه. ما إن يتاح سنتيمتر واحد، حتى يكون قد سُرق من شخص ليمد يده أو قدمه المتخدرة. وقفت ثانيتين وإذا بالغثيان ودوار البحر يعودان ثانية وبإلحاح. تقيَّأت بشدة. معدتي فارغة. كنت أُعتصر من شدة الألم، وأكافح لأخرج شيئًا من فمي، لم يكن هناك سوى تقلصات معوية. سقطت مرة أخرى دون أي قدرة على الحركة. لم يكن بمقدوري سوى الصراخ المستمر مناديًا صديقي. بعد ساعات، رأيت طفلًا صغيرًا يُدعى رامي، كان معنا في الحافلة ●●●

REUTERS

أصبحت أشعر أن المركب هو مملكتنا المتحركة. مركب من ثلاثة طوابق، يبلغ طوله 23 مترًا وعدد سكانه 350 شخصًا

كل شيء في القارب يدعوك لأن تغمض عينيك وتتمنى لو ترمي بنفسك في البحر

REUTERS

••• يقف أعلى السلم حاملًا كيسًا يتقيَّأُ فيه. سألته عن فاضل، فأجابني أنه أعلى القارب.

غرفة الموت البطيء

علمت بعدها أن سبب تأخره كان لمحاولته الحصول على هاتفه الذي أُخذ منه عندما كنا في القارب الثاني، فقد رفض الصعود للقارب دون هاتفه. كان يبحث عمن أخذه منه وسط الظلام، ووسط زحمة وغضب الصيادين، إلى أن التقى بكبيرهم الذي تعهد له بإحضار الهاتف. بقي في المركب الثاني لآخر شخص. صعد إلى المركب بعد أن حصل على هاتفه. كان من حسن حظه أن امتَلأَ المكان في الأسفل، مما سمح له بالبقاء في الأعلى في الهواء الطلق. لذا لم يتأثر بالجو الذي ساد في الغرفة في الأسفل. بعد ساعات نزل فاضل عبر السلم باحثًا عني، فرآني جالسًا في إحدى الزوايا. رفعت أصابعي له مشيرًا له أنني ما زلت حيًّا. كنا قرابة 350 شخصًا، نصفنا سوريون والبقية مصريون وسودانيون وإريتريون وصوماليون وبعض الفلسطينيين. كان الوضع مزريًا ومأساويًّا وخانقًا. كان جنزير دفة القارب يمر خلف ظهري وكان يحفر في ظهري كلما تحركت دفة القارب. بدأ توزيع الطعام: رغيف صغير متيبس وبداخله ملعقة صغيرة من اللبن المالح والمر كالعلقم. حاولت أن آكل منه قليلًا من أجل معدتي، التي تتقطع كلما حاولت التقيُّؤَ وهي فارغة. أما شربة الماء فكانت بطعم ورائحة المازوت المثيرة للغثيان هي أيضًا. كنت مضطرًّا للشرب فحلقي كان جافًّا لدرجة تفوق الوصف. كانت المعضلة الكبرى في الذهاب إلى الحمام الوحيد للثلاثمائة شخص على ظهر القارب الذي كان هو الآخر بحالة مزرية؛ رائحته كريهة ومنظره شنيع. لكنه بدا أفضل حالًا من الغرفة التي نجلس فيها. تمنيت أن أقضي بعض الوقت فيه، وألا أعود حيث كنت. كان كل شيء في القارب يدعوك لأن تغمض عينيك وتتمنى لو ترمي بنفسك في البحر.

كان الوضع مزريًا ومأساويًّا وخانقًا. كان جنزير دفة القارب يمر خلف ظهري وكان يحفر في ظهري كلما تحركت دفة القارب

كان البرد يتسلل إلى داخل جسدي من يديَّ ورجليَّ، شعرت بأن جسدي سينفصل عن بعضه البعض من شدة البرد

انتهى اليوم وخلدنا إلى النوم الذي كان رحمة لنا من كل شيء. في اليوم التالي، صعدت للأعلى حيث السماء صافية ولون البحر الأزرق يبعثان الهدوء داخلك. بدأت أتأقلم مع دوار المركب. توقف الغثيان والقيء. كان الجو حارًّا جدًّا في ساعات النهار، والشمس تحرق البدن، لكن فضلنا حرارة الشمس على رائحة الغرفة في الأسفل ووضعها الموبوء. كان الخروج من الغرفة يعني العودة للحياة، أما البقاء فيها فهو الموت البطيء. في المساء كان الجو ساحرًا ولطيفًا وهادئًا. ما إن حل الليل حتى اشتدت الرياح والبرد أصبح قارسًا. احتمينا بالإطارات المرمية حولنا وبصناديق السمك، علها تدفع عنَّا شيئًا من قسوة الرياح. كان البرد يتسلل إلى داخل جسدي من يديَّ ورجليَّ، شعرت بأن جسدي سينفصل عن بعضه البعض من شدة البرد. مر الليل ببطء شديد. نال العطش منا. رأيت أحدهم وهو يأكل تفاحة وجدها مرمية على الأرض من إحدى الحقائب. كنت وصديقي نراقب التفاحة، كيف تقترب من فمه وكيف تقضمها أسنانه، ونسمع صوت قضمها، وكيف تتطاير ذرات المياه من التفاحة أثناء طحنها بأسنانه. كان مشهد التفاحة مغريًا جدًّا. انتبه الرجل لنا، وأعطانا جزءًا منها علها تروي شيئًا من ظمئنا. انتهى اليوم الثاني لتبدأ رحلة طويلة استمرت ستة أيام على متن هذا القارب.

صراع على النوم

بدا جميلًا ورشيقًا وهو يشق الأمواج ويرسم خطًّا أبيض خلفه. بدا قويًّا وهو يمشي بثبات واضح على الماء وحيدًا في مساحات شاسعة فارغة تخبئ قصصًا وحكايا منذ أمد التاريخ لأناس عبروا من هذا البحر العظيم. كنت أقضي ساعات طوالًا وأنا أحدق إلى الأسفل وأراقب المياه التي تنفلق إلى قسمين، مياه زرقاء صافية تشدك إليها بعنف. حينما يرتفع القارب ويصطدم ثانية بالمياه ترتد عليك حبات المياه المالحة لتنعشك ولتعيدك إلى القارب من جديد، بعدما تكون قد حلقت إلى دنيا غير الدنيا التي أنت بها. أصبحت أشعر أن المركب هو مملكتنا المتحركة. مركب من ثلاثة طوابق، يبلغ طوله 23 مترًا وعدد سكانه 350 شخصًا. كان الطابق الأسفل مخصصًا للمحرك وتخزين المياه والطعام ويجلس على مدخله أحد الصيادين لمنع أي أحد من النزول. أما الطابق الأول فمكون من قسمين: الأول من جهة الخلف مليء بالحبال المكومة وشبكات الصيد التي استخدمها الركاب كمقاعد لعلوها عن الأرض وكونها أكثر راحة من الأماكن الأخرى. كان هذا القسم مكشوف الجوانب، والتهوية فيه جيدة. مكان لطيف لأن الشمس لا تصل إليه بشكل كبير، ودافئ في الليل لأن الرياح لا تصل إلى القسم الخلفي مما يمنح أفضلية للمسافرين في هذا القسم من عدم تعرضهم للشمس الحارقة أو للبرد القارس. لكن في المقابل يوجد في الوسط القسم العلوي من المحرك والمدخنة ورائحة الوقود التي تملأ المكان وتبعث على الغثيان.

في القسم المقابل في الطابق الأول، توجد غرفتان: غرفة الرجال وغرفة العائلات حيث النساء والأطفال ورجالهم والمطبخ والحمام، وصنبور المياه الوحيد في القارب إلى اليمين، وفي الوسط غرف الصيادين وعنبر صغير للتخزين استخدمه البعض للنوم. من مساوئ الطابق الأرضي أنه يسبح بشكل دائم في المياه التي تأتي

إما من الحمام أو البحر أو من خراطيم المياه المنتشرة. توزع الناس في كل ركن. حتى مدخل الحمام تجد من يستلقي أمامه. تشعر بأن هذه الغرفة المشؤومة غرفة للأوبئة والأمراض. ترى الضعفاء الذين استسلموا بشكل نهائي لدوار البحر الذي استمر معهم أيامًا متتالية. تراهم وهم لا يقدرون على أي حركة. من معالم الغرفة التي لا تغيب عن ذهني، رجل عجوز سوري يتوسط المكان، يمد قدميه العريضتين ويمسك بكيسه الممتلئ دائمًا، مع عينيه الشاخصتين ووجهه المكفهر وولده الثقيل والضخم. ما أزال أذكر وزن قدمه وساقه الثقيل عندما كان يضعها فوقي. كان يرتدي صندلًا بقدمه يزيد ثقل قدمه ثقلًا. في اليوم الأول كان حظي في الجلوس سيئًا للغاية. كان علي أن أجلس في مجرى المياه المختلطة بالقيء. في اليوم الثاني، حاولت تحسين ظروف إقامتي في الغرفة، فجلست على يمين الرجل العجوز. فكرت طويلًا في كيفية صعوده إلى المركب؟ كان يميل باتجاهي بشكل مستمر ويدفعني. ما كان لوزني أن يمنعه أو يحد من دفعه لي. وصلت إلى أمام الحمام إلا قليلًا من شدة الدفع، بعدها عدت للبحث عن مكان جديد. ألقى بي حظي تحت ذلك الشاب الضخم ابن الرجل العجوز. كان شابًا طويلًا ممتلئ الجسم. طلب مني وبلطف أن أستضيف ساقه وقدمه لفترة قصيرة من الزمن في منتصف الليل، فقدمه تخدرت ولم يعد يقدر على تحريكها. قبلت طلبه وسمحت له بأن يضع قدمه فوق كتفي ويسندها على ركبتي. لم تمض ثوان معدودة حتى بدأت أشعر بالضيق من ثقل قدمه والصندل الأسود الذي يرتديه. شعرت بالاختناق. كان قد غط في نوم عميق ومكثت أكثر من دقيقة محاولًا إزاحة قدمه من فوقي بمساعدة صديقي فاضل الذي أيضًا ذاق الأمرين في محاولته للنوم قليلًا.

كنا مسحوقين بكل معنى الكلمة

شعرت بالحزن على صديقي، إذ لم يجد مكانًا ينام فيه. حاولت وبشق الأنفس أن أوسع له مقدارًا ضئيلًا كي يجلس على الأرض ويضع قدميه فوق أقدامي ورأسه على صدري. لم يكن وضعًا مريحًا قط لأن كلينا نحيف الجسد، فكانت عظامنا ترتطم وتضغط على بعضها البعض. كان لا بد أن نغير وضعيتنا كل دقيقة. كنا مسحوقين بكل معنى الكلمة. الأهم من هذا أننا كنا نغفو ونسرق لحظات النوم لمدة دقيقة مثلًا، ثم نصحو بالرغم من كل هذا العذاب من شدة التعب والإرهاق.

كان أمامي رجل سوداني طيب دائم الابتسامة. بدت عليه علامات التشرد. كان بصحبة عائلته وكان يحمل طفلًا صغيرًا في حضنه. ولأننا في منتصف الغرفة فكان كل من يريد العبور من أول الغرفة إلى آخرها يمر من فوقنا. لذا كان طبيعيًّا أن يدهس المار على أقدامنا أو أيدينا ونأخذها بصدر رحب، عكس أول يوم عندما كان أحدهم يدوس فكنا ننظر بشيء من النزق ونطالبه أن يكون أكثر نباهة وحرصًا. ساد جو من العدوانية في بداية الرحلة، ثم بدأ يخف تدريجيًّا. كنت قد حصلت على فرصة لأتمدد قليلًا لمدة قصيرة عندما ذهب جاري إلى الحمام، وما إن أغمضت عينيَّ حتى شعرت بخيال ضخم يقترب مني، وكأن جدارًا أو شيئًا كبيرًا يقترب مني وتحديدًا من بطني، وإذ بقدم ضخمة جدًّا جدًّا تتهيأ لأن تدوس بطني. وإذ بي أهب كالمجنون ممسكًا بتلك القدم وهي تقترب من بطني وأصرخ، وأمطر صاحبها بوابل من الشتائم لعدم انتباهه إلى وجودي تحته. أمسكت قدمه الضخمة في اللحظة الأخيرة. كان شابًّا مصريًّا في مقتبل العمر، لكن جسده يزيدني بخمسة أضعاف على أقل تقدير. كنا ننام على أرجل بعضنا البعض من ضيق المكان. قررت بعد ذلك اليوم أن أصعد إلى الطابق الثاني الأفضل نسبيًّا في كل القارب خلف حجرة القيادة وقرب صناديق السمك وقرب عشرات من حقائب السفر المرمية هنا وهناك. كان القبطان طيب القلب رحيمًا وعطوفًا. وكذلك كان الصيادون، كانوا طيبين ولطفاء. حاولوا بشتى الوسائل مساعدة الناس. انتقلنا للنوم على الطرف المقابل. كان البرد القارس، الذي يخترق العظام، بالمرصاد. كنت أستيقظ فجأة من شدة البرد ولا أستطيع النوم حتى طلوع الشمس بينما صديقي ينام بعمق. خلال مدة الستة أيام التي قضيناها لم نعد نستطيع الجلوس على طرف أو على جنب. أصبحنا نشعر ونحس بعقد الخيوط على ثيابنا وهي تكبس على جلودنا. أصبح الواحد منا يغير طريقة ملامسة جسده للأرض كل دقيقة. كنت أقول لنفسي إن أكثر الناس راحة وسعادة هم المتلئون لحمًا وشحمًا ودهنًا ، فلا تتأذى عظامهم من ملامسة الأرض، إلا أنني عرفت العكس بعد فترة قصيرة عندما أخبرني أحد البدناء أنهم يعانون أكثر من النحيفين، فكل اللحم في جسدهم يضغط باتجاه الأرض فيشعرون بألم أكبر ■

AFP

ترى الضعفاء الذين استسلموا بشكل نهائي لدوار البحر الذي استمر معهم أيامًا متتالية. تراهم وهم لا يقدرون على أي حركة.

شعرت بالحزن على صديقي، إذ لم يجد مكانًا ينام فيه. حاولت وبشق الأنفس أن أوسع له مقدارًا ضئيلًا كي يجلس على الأرض ويضع قدميه فوق أقدامي ورأسه على صدري

مواسم الهجرة إلى الشمال:**

أزمة إنسانية غير مسبوقة على أبواب أوروبا

لوسيل ماربو*

بحسب إحصائيات المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين وصل أكثر من 800 ألف مهاجر إلى أوروبا عن طريق البحر، أغلبهم فرُّوا من الحرب المستعرة في الشرق الأوسط وأفغانستان. وللأسف، لقي زهاء 3000 شخص مصرعهم أو اختفوا عند هذه المعابر الخطيرة. اللجنة الدولية والجمعيات الوطنية كان لها دور في المساعدة على تلبية احتياجات هذا العدد المهول من المهاجرين.

مع اشتداد الصراع في سورية، أسفرت الموجة الأخيرة من التدفق الهائل للمهاجرين عن أزمة إنسانية غير مسبوقة على أبواب البلدان الأوروبية. وتشكل تلبية احتياجات هذا العدد الضخم من المهاجرين التحدي الأكبر على الإطلاق أمام جمعيات الصليب الأحمر الأوروبية منذ الحرب العالمية الثانية والحرب الأهلية في يوغوسلافيا السابقة. وتتنوع رحلات هؤلاء المهاجرين، فمنهم من يعبر البحر إلى اليونان، ومنهم من يسلك طريق اليابسة من تركيا باتجاه أوروبا. ويوضح رئيس برنامج إعادة الروابط العائلية للبعثة الأوروبية للجنة الدولية **فيلهلم أود** (Wilhelm Odde) هذه المسارات بالقول: «**أول شيء يفعله اللاجئ في اليونان هو أن يهرع إلى الهاتف النقال ويتصل بالعائلة ويقول: نجحنا في الوصول، نحن أحياء وسالمون**». لكن أثناء هذه الرحلات من تركيا، غالبًا ما تغرق المراكب أو يفقد المهاجرون هواتفهم وكل بيانات الاتصال مع أحبتهم. أرسلت اللجنة الدولية للصليب الأحمر **صوفي فان بيليجيم** (Sofie Van Belleghem) من **الصليب الأحمر البلجيكي** في مهمة إلى البلدان الواقعة في طريق الهجرة (مقدونيا وكرواتيا) لتقييم ودعم استجابات أنشطة إعادة الروابط العائلية. وتوضح **فان بيليجيم**: «**الهواتف النقالة والذكية شريان حياة بالنسبة للمهاجرين. وهم بحاجة ماسة للبطاريات بحيث يمكنهم التواصل مع ذويهم في بلدانهم**». ومن الاحتياجات التي تلبيها جمعيات الصليب الأحمر بطول خط سير الهجرة للبلدان التي يقصدها المهاجرون: توفير خدمات الإنترنت وشبكات الواي–فاي، وإقامة نقاط لشحن البطاريات وتوزيع بطاقات التعريف الشخصية للهواتف، وإجراء المكالمات الهاتفية المجانية.

ويعبر المهاجرون الحدود بأسرع وقت للوصول إلى البلدان التي يقصدونها، وهي ألمانيا والسويد في الغالب. ويتشتت شمل العائلات أحيانًا عند معابر الحدود أو عندما ترسلهم السلطات لمخيمات مختلفة. ويصف **إيفان أوزمياني** (Ivan Usmiani)، من الصليب الأحمر الكرواتي، الوضع بالقول: «**ساعة بعد ساعة يتغير الوضع. وأحيانًا يتدفق 200 لاجئ في الساعة، وأحيانًا يكونون 500 شخص في الساعة**». ويستطرد: «**لذلك يجب علينا أن نتخذ القرارات بسرعة، وكذلك ينبغي لنا البقاء في وضع استنفار لأن التشتت بين أفراد العائلات يحدث أثناء وجود تلك الأعداد الكبيرة**». ويتعين على الجمعيات الوطنية أن تنسق فيما بينها كي تعثر بسرعة على أفراد العائلة المفقودين ومساعدتهم على إلحاقهم بعائلاتهم. تقول **سانجا كوستادينوفا** (Sanja Kostadinova)، منسقة المساعدة في الصليب الأحمر المقدوني: «**كانت لدينا حالات عدَّة لعائلات تشتت أفرادها خلال الرحلة من تركيا إلى اليونان. كذلك لدينا حالات، وإن كانت قليلة، يوجد فيها عدد من أفراد العائلة في اليونان بينما القسم الآخر من العائلة في مقدونيا**». ويقوم الصليب الأحمر المقدوني بالتواصل مباشرة عبر الهاتف مع الصليب الأحمر اليوناني على الجانب الآخر من الحدود للعثور على الشخص المفقود. ويقول **إيفان أنتونيك** (Ivan Antonic) رئيس برنامج إعادة الروابط العائلية التابع للجنة الدولية، في بعثة **بلغراد** الإقليمية: «**قد تطول فترة تشتت الأفراد عن عائلاتهم هنا وطوال رحلة الهجرة لعدة سنوات. وقد نشرت إحدى الجمعيات الوطنية إحصائية تقول إنها**

لم تدخر الجمعيات الوطنية جهدًا، استنادًا إلى الدعم التقني وأحيانًا المالي الذي توفره اللجنة الدولية، لتوفيق استجابتها لمسارات الهجرة المتغيرة بسرعة والتعامل مع التدفق الهائل للمهاجرين

♦

* Lucile Marbeau
موظفة في المركز الإعلامي ببعثة اللجنة الدولية في باريس.
** عنوان مستوحى من رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للأديب السوداني الطيب صالح

ICRC

أنشطة الجمعيات الوطنية في أوروبا لدعم اللاجئين

■ الدعم التقني والمالي للجمعيات الوطنية ■ تدريب متطوعي إعادة الروابط العائلية ■ تقديم أجهزة تابلت في مراكز الاحتجاز في اليونان ■ الدعم والمشورة للجمعيات الوطنية والسلطات ■ جلسات تدريب لحرس السواحل اليوناني وأفراد الجمعيات الوطنية ■ أنشطة الطب الشرعي (دعم مادي وتوفير أكياس وثلاجات لحفظ الجثامين).

نجحت في لمِّ شمل أكثر من 200 شخص بعائلاتهم. وإذا لم تتوفر مثل هذه الخدمة في هذا المخيم فلا يمكننا تخيل مدى الصعوبات التي سيواجهها الناس في رحلتهم».

ولم تدخر الجمعيات الوطنية جهدًا، استنادًا إلى الدعم التقني وأحيانًا المالي الذي توفره اللجنة الدولية، لتوفيق استجابتها لمسارات الهجرة المتغيرة بسرعة والتعامل مع التدفق الهائل للمهاجرين. بعض جمعيات الصليب الأحمر ليس لديها أقسام للبحث عن المفقودين، لذا فقد اضطرت إلى تشكيل مثل هذه الأقسام سريعًا وتدريب الموظفين على مثل هذا العمل. وهذه الأزمة ليست استثنائية بسبب أعداد المهاجرين فحسب، وإنما أيضًا لأنهم يمكثون لوقت قصير فقط في مخيمات اللاجئين التي تقام بطول طريق الهجرة. ويوضح رئيس برنامج إعادة الروابط العائلية للبعثة الأوروبية للجنة الدولية **فيلهلم أود**: «**نحن لسنا أمام نمط اعتيادي حيث يَعلَق الناس في مكان مثل مخيم لاجئين أو في مراكز استقبال ... بل أمام وضع إنساني مختلف يستدعي احتياجات مختلفة ويتطلب منا أن نسعى وراء حلول مبتكرة. فما من أحد كان مستعدًا لمثل هذا التدفق الهائل للمهاجرين، على الأقل ليس بهذا الحجم ولا بهذه الكثافة**». وتمثل مبادرة «**ابحث عن هذا الوجه**» (Trace the Face) في مشروع إعادة الروابط العائلية (http://familylinks.icrc.org) أحد الابتكارات التي قدمتها الجمعيات الوطنية الأوروبية واللجنة الدولية لدعم اللاجئين. فعبر هذا الموقع يمكن للأشخاص الذين يبحثون عن أفراد العائلة المفقودين نشر صورهم، وصور المفقودين الذين يبحثون عنهم.

لكن أحيانًا للأسف، قد يكون الشخص المفقود ميتًا، فمن الناجين من يلقى حتفه غرقًا، أو يلفظ أنفاسه الأخيرة أثناء الرحلة على اليابسة. على سبيل المثال، عندما كان المهاجرون يعبرون مقدونيا بشكل غير قانوني أثناء الربيع والصيف الماضيين، لقي 29 شخصًا حتفهم تحت عجلات القطارات وهم يتجهون إلى صربيا. يشعر أفراد العائلة باليأس بسبب ندرة الأخبار عن ذويهم المفقودين، وبالطبع فإن من حقهم معرفة مصير أحبائهم. ومهمة الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر أن تمد يد العون للعائلات التي فجعت بفقد ذويها عن طريق التواصل مع السلطات المعنية. وتقدم اللجنة الدولية أيضًا المشورة والخبرة للجمعيات الوطنية وكذلك السلطات.

وبالرغم من أن معابر البحر أشد خطورة في فصل الشتاء مقارنة بأيام الصيف، ما يزال المهاجرون يخاطرون بحياتهم سعيًا وراء ملجأ آمن في أوروبا. وتقول الأمين العام للصليب الأحمر الصربي **فيسنا ميلونوفيتش** (Vesna Milenovic): «**ليس باستطاعة أحد أن يقدم لنا أية توقعات بشأن احتمالية التطورات المستقبلية. وبكل تأكيد نحن نرى أن الوضع سيستمر خلال الشتاء بل وما بعده. وما يشكل علامة استفهام كبيرة أيضًا هو التطور الذي سيلحق بحركة هؤلاء المهاجرين في المستقبل**» ■

محمد علاَّم فرغلي*

تطويع التقنية لمساعدة المهاجرين: عندما يتحول الهاتف الذكي إلى طوق نجاة

شكلت الصور التي انتشرت للمهاجرين إلى أوروبا وهم يحملون هواتف ذكية، مادة للنقاش والتندر داخل أوروبا نفسها عن مدى ضرورة هذه التقنية والدافع الذي يجعل المهاجرين يتشبثون بها وكأنها أثمن مقتنياتهم وهم يعبرون مخاطر البحر.

«مع من أتواصل للحصول على المساعدة؟»، «ما هي حقوقي كلاجئ؟»، «كيف وأين يمكنني تقديم طلب لجوء؟»، «أين أجد مكانًا آمنًا لي ولأطفالي؟». هذه عينة من الأسئلة التي يطرحها اللاجئون في ظل موجة التدفق الكبيرة للمهاجرين إلى بلدان أوروبا. شكلت هذه الموجة - التي توصف بأنها الأكبر منذ الحرب العالمية الثانية - أزمة حقيقية لم تكن القارة العجوز مستعدة لها. فقد فرضت تحديات جديدة استدعت تفكير البعض في حلول تتواكب مع عصر المعلومات، سواء كانت هذه الحلول قديمة تم تحديثها، كاستخدام الإنترنت لجمع التبرعات لمساعدة المهاجرين، أو حلول حديثة كليًّا كتطوير تطبيق هاتف ذكي يرسل للاجئين مواقع المخيمات، وكيفية الحصول على الطعام والاحتياجات الأساسية. وبذلك لم يعد الهاتف الذكي وسيلة رفاهية بالنسبة لهؤلاء اللاجئين، فبواسطته تمكنوا من التواصل مع أحبائهم، والتعرف على وجهتهم المقبلة وكذلك متابعة الأخبار وآخر المستجدات بشأن بلدانهم.

يجاهد مطورو البرامج ورواد الأعمال في البحث عن أفضل السبل لتوظيف الهواتف الذكية في خدمة المهاجرين. فعلى صعيد شركات التقنية الكبرى، دشنت «غوغل» موقعًا إلكترونيًّا يحمل عنوان «**معلومات اللاجئين**» (refugeeinfo.eu) بست لغات منها العربية، وذلك بالتعاون مع منظمة «**ميرسي كوربس**» (Mercy Corps) و«**لجنة الإنقاذ الدولية**» (International Rescue Committee). يحتوي الموقع على معلومات عن كيفية تقديم طلبات اللجوء، ومواقع مراكز الإيواء، وكيفية التنقل، والحصول على مختلف الخدمات، بالإضافة لأرقام الطوارئ ومعلومات عن العملة النقدية المستخدمة في بلد الوجهة. أما موقعا التواصل الاجتماعي «تويتر» و«فيسبوك» فقد ساهما في حملة «**ساعد اللاجئين**» (Aid Refugees)، التي تمكنت من جمع مليون دولار في يوم واحد لتوفير حلول سريعة لهذه الأزمة الإنسانية العالمية.

* محلل إعلام اجتماعي في «المركز الإقليمي للإعلام» ببعثة اللجنة الدولية في القاهرة.

يسابق مطورو البرامج ورواد الأعمال الزمن لتوظيف التقنيات الحديثة من أجل خدمة المهاجرين.

AFP

AFP

«غربتنا»: تطبيق وموقع إلكتروني يهدف إلى توفير منصة معلومات للمغتربين السوريين في كل أنحاء العالم.

كما عقدت شركات ناشئة ومطورو برامج مؤتمرات، في بلدان عدة كالمملكة المتحدة وأستراليا وإيطاليا وألمانيا والنمسا، مثل مؤتمر "Refugee Hack Vienna" و"TechFugees" و"Refugee–Hackathon"، لتوظيف التقنيات الحديثة في التخفيف من وطأة الظروف الإنسانية القاسية التي تصاحب عمليات اللجوء هذه. ومن الأمثلة على هذه التطبيقات: تطبيق «**إنفو أيد**» (InfoAid)، الذي طوره فريق عمل مجري. يعمل هذا التطبيق بست لغات ويوفر معلومات مهمة للمهاجرين في أوروبا كمواعيد وأماكن وسائل النقل، ومستجدات إغلاق الحدود، والحاجات الأساسية التي تعين اللاجئ في رحلته الشاقة.

تطبيقات في الدول المستقبلة

نموذج آخر لهذه التطبيقات هو «**تطبيق مرحبًا ألمانيا**» (Welcome–App Germany)، الذي طورته شركتان ألمانيتان بهدف تقديم معلومات بلغات عدة للمهاجرين الجدد في البلاد. يجيب التطبيق عن تساؤلات المهاجرين الأساسية بشأن الثقافة والقوانين الألمانية. تطبيق آخر طُوِّر خصيصًا للمهاجرين هو «**ريفيوجييز كونكت**» (Refugees Connect)، الذي يتيح للمستخدم التواصل مع عمال الإغاثة بشكل مباشر عن طريق طرح أسئلة وتلقي إجابات عليها. ويمكّن التطبيق أيضًا المهاجرين من التواصل مع بعضهم البعض.

في هولندا، أعلنت **جمعية الصليب الأحمر الهولندي** عن عزمها تطوير تطبيق «**ريفيوجي بادي**» (Refugee Buddy) ويهدف إلى تزويد المهاجرين بالمعلومات عن أماكن إقامتهم الجديدة في هولندا؛ مثل موقع أقرب صيدلية، أو مسجد أو كنيسة. وقد أقدمت الجمعية على هذه الخطوة نظرًا لأن نحو 90٪ من اللاجئين في هولندا لديهم هواتف ذكية. ومن المقرر أن يقوم فريق عمل الجمعية بترجمة تطبيق الإسعافات الأولية وإدماجه في التطبيق الجديد.

ويبدو نقص المعلومات تحديًا هامشيًّا أمام تحدي الموت الذي يواجه الآلاف من المهاجرين إلى أوروبا عبر البحر. وفي هذا الصدد، بدأ متطوعون من النمسا بتصميم «**منصات إنقاذ**» (Rescue Platforms) في المياه الدولية في البحر المتوسط. تحتوي كل منصة على أضواء ملاحة، وجهاز مكالمات طوارئ، وكاميرا، ومِرْساتين، وطوقي نجاة، علاوة على احتياطيات غذائية وجهاز تحديد مواقع بتقنية الـ GPS، لتكون المنصة بذلك طوق نجاة مبتكرًا، يتشبث به المهاجرون في رحلتهم الشاقة.

لم يقتصر تطوير التطبيقات على الشركات الكبرى والمطورين الأوروبيين فحسب، فقد استحدث مجموعة من الشباب السوري الموجود في تركيا تطبيقًا وموقعًا إلكترونيًّا بعنوان «**غربتنا**». يهدف التطبيق إلى توفير منصة معلومات للمغتربين السوريين في كل أنحاء العالم، وربط المغتربين في البلد الواحد مع بعضهم البعض، وتوفير فرص عمل، وتوعية المغتربين وتدريبهم ■

لبنان: حق التعليم لنصف

منال عبد الأحد*

يخوض مئات الآلاف من الأطفال السوريين اللاجئين في لبنان صراعًا للحصول على حقهم في التعليم. حالف الحظ بعض الطلاب فتمكنوا من الانخراط في بعض المدارس، لكنهم يعانون من وطأة الأزمات النفسية بعيدًا عن وطنهم. آخرون لم يتمكنوا من ضمان مقعد دراسي، لهذا قبعوا في منازلهم أو خرجوا بحثًا عن عمل.

AFP

«**المواد** غريبة، مادة التاريخ ليست كما كنا ندرسها، ولا الجغرافيا ولغة العلوم أو الرياضيات»، هكذا يتحدث بحسرة **سامر**، وهو طالب سوري لاجئ في لبنان يبلغ من العمر اثني عشر عامًا. يحضر **سامر** في مدرسة شبه مجانية؛ وهذا ترف عظيم بالنسبة لكثير من الطلاب السوريين اللاجئين في لبنان. لكنه يعاني من وطأة المناهج الدراسية اللبنانية الغريبة عنه. وبالرغم من ذلك يثابر على متابعة الدراسة، فهناك فائدة حتى وإن كانت بسيطة كما تقول والدته **نجاة**. على النقيض من **سامر**، لا ترد كلمة التعليم أصلًا في مخيلة **خالد**، وهو لاجئ سوري آخر، يعيش في خيمة يبللها المطر من جوانبها كافة. يبيع **خالد** المحارم صباحًا، أما في المساء فيبيع الورود على أبواب الملاهي ودور السينما. تقول والدته: «**الإخوة إما يعملون مع خالد أو ينتظرون دورهم للعمل، فإيجار الخيمة آخذ في الارتفاع**».

في شارع من شوارع العاصمة بيروت، يمكن أن تصادف طالبًا اسمه **مهند**، يضع أمام وجهك وردة ويقول بلكنته الشامية «**ألف ليرة**». اختار **مهند** بيع الورود في الصباح، ذلك لأنه قرر متابعة دراسته في المساء. لكنه يبدو حزينًا والخيبة واضحة في عينيه: «**وكأنهم لا يريدوننا، يقولون الدرس ولا أفهم شيئًا، أطلب التفسير فيقولون ركز، كيف لي أن أركز في مواد لم تكن في منهاجي من قبل؟! ولا يشرحها لي أحد... التعليم حقنا ... ما بدنا نشحد شي شحاده**». أمه، التي تبيع الجرائد، تتجه نحونا لتستدرك ما قاله ابنها. تقول: «**مهند يحب التعليم، كان الأول في صفه... لكنه الآن لا يحظى بفرصة دوام صباحي، إضافة إلى اختلاف المناهج التي درسها في سورية عن المناهج اللبنانية**». تضع الأم يدها على فم **مهند** وكأنها تكمّمه، لكنه يرفض السكوت، يقول: «**لا.. لا.. عامر حاز على فرصة الدوام الصباحي والوضع ليس أفضل.. إنهم يتعاملون معه... لا أعرف ماذا أقول... نوع من التمييز، يقولون هذا سوري... حتى الأساتذة لا يجيبون عن أسئلته**».

بين مطرقة الخوف والأزمات النفسية، وضعف إمكانيات الجهات الرسمية، يتراوح مصير الأطفال السوريين. فمنهم من يحصل على حقه في التعليم، ومنهم من يقبع في منزله أو يمارس عملًا بالمخالفة لحقوق الطفل. وفقًا للإحصاءات التقريبية التي أجرتها بعض المنظمات، يبلغ عدد الأطفال السوريين في لبنان نحو 500 ألف طالب، التحق منهم نحو 105 آلاف طالب بالمدارس الرسمية، ونحو سبعة آلاف في المدارس شبه المجانية، و40 ألف طالب في التعليم الخاص.

وسبق لوزير التربية والتعليم العالي اللبناني **إلياس بو صعب** أن أنذر بأن وزارته عاجزة عن تأمين التعليم لهؤلاء الأطفال ما لم يتم تأمين المساعدات من المجتمع الدولي. وتقول مديرة «**برنامج تزويد الأطفال بحقهم بالتعليم**» **سونيا الخوري** «إن العدد الكبير من الأطفال بعمر التعليم، بسبب الأزمة السورية، يضع

* صحافية لبنانية

الوزارة أمام محك تأمين الدعم لتعليمهم، ولهذا تحاول الوزارة التعاون مع جهات أخرى لتقديم الدعم للطلاب السوريين في لبنان». وتوضح **الخوري «إن دعم منظمات كالمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين واليونيسيف واليونسكو، مكنت الوزارة من تقديم خدمات التعليم بعد الظهر من خلال 90 مدرسة في السنة الأولى، و144 مدرسة في السنة الثانية، ومن المقرر أن يصبح العدد 240 مدرسة تستوعب 400 ألف طالب إذا ما جرى تأمين الدعم المالي الكافي من المجتمع الدولي. كما توفر الوزارة برنامجًا للتعليم المكثف يستقطب الطلاب غير المؤهلين للانخراط ضمن البرامج التعليمية بسبب انقطاعهم عن التعليم أو عدم التحاقهم في برامج تعليمية قبل ذلك، بغية تأهيلهم للانضمام إلى صفوف التعليم النظامي»**.

مشاكل نفسية

لا يقتصر الأمر على مجرد توفير مكان للطالب السوري كي يحصل فيه على التعليم، فهناك مشاكل نفسية تتعلق بتأثير اللجوء على نفسية الطفل. تقول المستشارة في علم النفس العيادي **غيدا الحسيني**: **«خسارة الوطن جغرافيًّا وانتماءً، تولِّد لدى الطفل حالة من الحزن الشديد والاضطراب وهو ما يؤدي بدوره إلى صعوبة التأقلم والاندماج في المناهج الجديدة»**.

وتعزو **الحسيني** ذلك بشكل أساسي إلى عدم جهوزية المجتمع اللبناني ببناه التحتية لتأمين ظروف أفضل لهؤلاء الأطفال. وتقول: **«نظرًا لخسارة الطفل لوطنه، مجتمعه ومحيطه السابق، فإن الدمار الحاصل في وطنه الأم يسبب له شعورًا كبيرًا بالخوف والحزن والتهديد بمصير مجهول، وأمام كل هذه التحديات فالسلطات اللبنانية المعنية، وإن كانت قد بذلت قصارى جهدها لتأمين التعليم لأكبر فئة ممكنة، إلا أنها تعاملت وما زالت تتعامل مع هذا الملف على أساس أنه حالة طوارئ دون أن تبذل مساعي جدية لتقديم حلول مستقبلية لأزمة لا نعرف كم ستستغرق»**.

تعمل الحسيني حاليًّا في مبادرة شهدت نجاحًا ملحوظًا في مناطق طرابلس وبيروت والبقاع والجنوب. المبادرة هي **«الرياضة توحِّد»**، والتي جرى تدشينها بدعم من السفارة الأميركية في بيروت. وتهدف هذه المبادرة إلى العمل على التقارب بين الإناث «المهمشات» اللبنانيات والسوريات (من أعمار 12 - 15 سنة) من خلال نماذج تعليمية وألعاب رياضية لصقل مهاراتهن الفنية ومواهبهن الإبداعية مما يساهم في ردم الهوة بين هاتين الفئتين، وتطوير مهاراتهن وقدراتهن. ومن هذه الرياضات المستخدمة في هذه المبادرة كرة القدم. وتقول **الحسيني** إن اختيار كرة القدم جاء لكسر الصورة النمطية في أنها لعبة محصورة في الشباب فقط، هذا علاوة على أنها رياضة تساهم في تعزيز قدرات الفتيات وثقتهن بأنفسهن.

تقدم مبادرة **«الرياضة توحِّد»** نموذجًا لنشاط المجتمع المدني اللبناني في المساهمة في تعليم الأطفال السوريين في لبنان. وتقول الناشطة **نوال مدللي**، التي برز اسمها كمتطوعة في مبادرات لدعم اللاجئين السوريين في لبنان، **«الصعوبات التي يواجهها اللاجئ السوري لا تقتصر على أزمة تأمين التعليم، فهناك عوائق أخرى تحول دون التحاق الأطفال بصفوف عادية في المدارس الرسمية والمجانية كمشكلة توفير نفقات الانتقالات وعدم توفر فرص العمل أو انخفاض الأجور مما يحول دون تعليم الأطفال. وفي مثل هذه الظروف، يُجبر الأطفال على العمل للمساعدة في تأمين الدخل للعائلة نظرًا لارتفاع ثمن إيجار الخيمة التي يقطن فيها اللاجئون»**. وتؤكد **مدللي**، وفقًا لمشاهداتها العينية من خلال عملها اليومي، إن **«التمييز الحاصل بين الطالب السوري والطالب اللبناني، حيث يتم التعامل باستعلائية من قبل بعض التلامذة اللبنانيين وحتى من قبل بعض الأساتذة مع الطالب السوري»** ■

مليون طفل سوري على المحك

مزدلفة محمد عثمان*

في قبضة تجار البشر في السودان:

آمال العبور تطغى على هواجس الهلاك**

شكل السودان خلال السنوات الماضية معبرًا لعمليات التهريب والإتجار في البشر، حيث يتدفق الآلاف سنويًّا إلى حدوده الشرقية ومنه إلى ليبيا أو مصر، ثم تأتي مرحلة عبور البحر المتوسط باتجاه أوروبا. هنا إطلالة على صور من حياة وأحلام هؤلاء المهاجرين.

REUTERS

في الصورتين: إريتريون في معسكرات استقبال بالسودان

في حي **الديم** العريق بوسط العاصمة السودانية **الخرطوم**، الذي تقطنه أغلبية من المهاجرين من دولتي إريتريا وإثيوبيا، جلس **أبرها** أمام أحد صالونات تصفيف الشعر ساهمًا شارد الذهن، يحدق في الأرض، قبل أن يرسم عليها خطوطًا متقاطعة بعصا نحيفة، كانت تلعب بين أصابعه بشكل ينم عن احترافية صاحبها في تحريك خيوط الحياة بما يتلاءم مع تقلب الأحوال.

أبرها، وهو شاب في العشرينيات من العمر، ليس سوى واحد من مئات الفارين من عصابات تهريب البشر. قبل عدة أشهر، دهمت قوة أمنية سودانية العصابة وحررت زملاءه وألقت القبض عليهم، لكنه تمكن من الفكاك من بين يدي السلطات السودانية. وكأن الشاب لا يصدق أنه نجا من تلك العملية، فهو يبدي زهدًا في رواية تفاصيلها المثيرة، ويكتفي بالقول «**أشكر الرب**». وبالرغم من تجربته ووقوعه في براثن تلك العصابة، فاجأني بالقول بلغة عربية متعثرة «**سأذهب إليهم مرة ثانية. أريد السفر لأوروبا. سأجمع الملايين وسأذهب عبر ليبيا إلى إيطاليا... أعلم أن المخاطر بلا حد لكن سأجرب، فربما أنجح**».

إذن فهذا هو هدف **أبرها**. أن يصل إلى أوروبا، غير هيَّاب بأي تهديدات أو مخاطر، لكن عليه أن يجمع ما لا يقل عن 3600 دولار لتلك الرحلة. يتابع الشاب وفي عينيه لمعان كأنه ينظر أمامه أرض أحلامه «**حتى أصل ليبيا عبر التهريب طلبوا مني توفير 1600 دولار يتم استلام نصفها هنا في الخرطوم، والنصف الآخر عند وصولي إلى الأراضي الليبية**».

وبطبيعة الحال يرفض **أبرها** الكشف عن هوية أولئك المهربين، ويكتفي بالقول إنهم سودانيون ومن جنسيات أخرى، وأن آخرين سيستقبلونه في ليبيا وسيدفع لهم ما يعادل ألفي دولار لينقلوه إلى شواطئ إيطاليا. كررت أسئلتي على **أبرها** ليسرد كيفية تعرفه على المهربين. تحدث الشاب راويًا وقائع خروجه من إثيوبيا، لكنه شدد على أنه لن يتحدث عن مهربيه من الخرطوم إلى أوروبا عبر ليبيا. وأوضح أن عمليات التهريب تبدأ عادة باتصالات بين رجال موجودين في السودان وآخرين في إثيوبيا، ويتم الاتفاق على جمع عدد محدد من الأشخاص في منطقة حدودية، لتبدأ رحلة شاقة للغاية يعبر خلالها الضحايا طرقًا وعرة بواسطة خبراء يدركون تضاريس المنطقة، بعيدًا عن أعين السلطات المنتشرة على الحدود بين البلدين. ويشير **أبرها** إلى أن بعض الهاربين يشترطون نقلهم إلى إسرائيل وهؤلاء كما يقول **أبرها** تكون وجهتهم شرق السودان، حيث يدفع الفرد حوالي 1200 دولار للعصابات نظير الترحيل. ولا يمكث هؤلاء في السودان إلا لفترة وجيزة يجمعون خلالها مزيدًا من المال ليدفعوه إلى مهربين ينقلونهم إلى أوروبا أو إسرائيل.

تجارة بشر أم تهريب؟

يدفع المهاجرون لدواعٍ اقتصادية عادة الأموال لمهربيهم طوعًا لنقلهم من النقطة (أ) إلى النقطة (ب)، وهو ما يختلف عن تاجر البشر. فالأخير ينقل ضحيته رغمًا عنها أحيانًا، ويسيء معاملتها بشتى الوسائل، وفي الغالب يستنزف تجار البشر أهالي الضحية ماديًّا بطلب الفدية.

ويوضح ضابط العلاقات الخارجية بـ **المفوضية السامية لشؤون اللاجئين نيكولاس براس «في الغالب تكون العملية في بدايتها تهريبًا للبشر وفي منتصف الطريق ربما تتحول إلى إتجار»**. ويتابع: «**الذين يلجأون إلى المهربين هم مزيج من المهاجرين واللاجئين، والأخير يحتاج إلى حماية من نوع خاص وفقًا لاتفاقية العام 1951 الخاصة بوضع اللاجئين**».

تعرِّف المادة الأولى من الاتفاقية اللاجئ بأنه شخص يوجد خارج بلد جنسيته أو بلد

* صحافية سودانية
** الأسماء الواردة هي أسماء مستعارة حفاظًا على خصوصية أصحابها.

أريد السفر لأوروبا، سأجمع الملايين وأذهب عبر ليبيا إلى إيطاليا، المخاطر بلا حد، لكنني سأحاول فربما أنجح

ICRC

إقامته المعتادة، بسبب خوف له ما يبرره من التعرض للاضطهاد بسبب العنصر، أو الدين، أو القومية، أو الانتماء إلى طائفة اجتماعية معيَّنة، أو إلى رأي سياسي، ولا يستطيع بسبب ذلك الخوف أن يستظل بحماية دولته خشية التعرض للاضطهاد. أما الشخص الذي يغادر بلده لدواعٍ اقتصادية بحتة فلا يمكن تصنيفه كلاجئ.

ويشير **براس** إلى أن الأشخاص الذين يغادرون بلدانهم عادة ما يلجأون إلى شبكات تهريب غير منظمة. وخلال رحلتهم يتعرضون لمخاطر جمة، كوقوعهم ضحايا لعمليات الإتجار بالبشر.

ويضيف **براس** «**استقبلنا ضحايا إتجار بالبشر تم تعذيبهم، والإساءة إليهم، أو جرى احتجازهم كرهائن إلى حين دفع فدية لإطلاق سراحهم**».

وفي حين يمثل السودان معبرًا محوريًّا لتهريب البشر إلى دول أوروبا بحثًا عن وضع اقتصادي أفضل، يقول مسؤولون سودانيون إن البلاد ليست طرفًا في عمليات الإتجار بالبشر التي تجري غالبًا خارج السودان. وسبق لوزير الداخلية السوداني **عصمت عبد الرحمن** أن ذكر في تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2014، على هامش مؤتمر **الخرطوم** لمكافحة الظاهرة: «**نحن في السودان غير معنيين بعملية الإتجار بالبشر، وإنما تعنينا عملية تهريب البشر والتي تتحول إلى إتجار بالبشر بعد خروجها من حدودنا**». لكن في المقابل تنشط عصابات في شرق السودان تعمد إلى تنفيذ عمليات اختطاف علنية مستخدمة سيارات وأجهزة اتصال وأسلحة متطورة. وتشير تقديرات **للمفوضية السامية لشؤون اللاجئين** أن منطقة شرق السودان تستقبل شهريًّا نحو 1100 لاجئ، معظمهم من إريتريا.

وفي العام 2013 نشر موقع «**سودان تريبيون**» الإخباري (sudantribune.com)، خبرًا مفاده أن إحدى القبائل في شرق السودان أقامت احتفالًا لمجموعة عائدة من إسرائيل بعد اختطافهم من قبل عصابة تتاجر بالبشر، والتي استنزفت أموال أعيان القبيلة بعد أن طلبت 35 ألف دولار لكل مختطف تحول عبر أحد البنوك مقابل إطلاق سراح المختطفين. يومها كشف أحد الأطفال المختطفين العائدين عن تعرضهم للضرب المبرح والتعذيب بجانب 24 شخصًا آخرين يحملون جنسيات دول مثل **إريتريا وإثيوبيا**. وقال الطفل ويدعى **أحمد** إن أفراد العصابة كانوا يمنعونهم من أداء الصلوات ويطعمونهم وجبة واحدة في اليوم تتكون من الخبز والجبن فقط ولا يسمحون لهم بالاستحمام ويتم ربط كل شخصين بقيود حديدية.

وكان وفد من سفراء الاتحاد الأوروبي زار في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي معسكرات اللاجئين في شرق السودان، بعد تنامي الحديث عن تزايد أنشطة تهريب البشر والإتجار بهم. شاهد الوفد في **مركز ود شريفي لاستقبال الوافدين** (15 كلم جنوب شرق **كسلا**)، تكدس عشرات الشباب والشابات في غرف ضيقة، وسط وضع صحي شبه منهار. وذكر غالبية من جرى الحديث معهم من هؤلاء اللاجئين أنهم وصلوا إلى السودان مشيًا على الأقدام من إريتريا. لم يتردد بعض الشباب في إعلان رغبتهم صراحة في البحث عن أي وسيلة تنقلهم إلى أوروبا.

ويؤكد براس أنه «**في العام 2012 بدأ استهداف اللاجئين أنفسهم في المعسكرات، حيث يتعرضون للاختطاف على يد عصابات مسلحة ثم تطلب هذه العصابات الفدية. ويواجه آخرون خطرًا متزايدًا أثناء دخولهم إلى السودان وفي الطريق إلى المعسكرات**».

ويشير إلى أن «**المفوضية السامية لشؤون اللاجئين**» تعمل جنبًا إلى جنب مع الحكومة السودانية، وعلى الأخص مع **معتمدية اللاجئين السودانية** لتعزيز الأمن في المخيمات في المقام الأول، وتقديم المساعدة لضحايا الإتجار بالبشر.

وشهد العام 2013 مباحثات بين «**المفوضية السامية لشؤون اللاجئين**» مع الحكومة السودانية بمشاركة «**منظمة الهجرة الدولية**»، لوضع استراتيجية للتصدي للإتجار وتهريب واختطاف البشر، وتعزيز الأمن في معسكرات استقبال اللاجئين. وتمخضت عن هذه المباحثات نتائج إيجابية مثل إقرار الحكومة السودانية قانون مكافحة الإتجار بالبشر في العام 2014، علاوة على توسيع نطاق استراتيجية مكافحة الإتجار بالبشر لتضم مؤسسات دولية مثل «**صندوق الأمم المتحدة للسكان**» و«**صندوق الأمم المتحدة للطفولة**» (**اليونيسيف**) ومكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة.

وترتكز استراتيجية مكافحة الإتجار بالبشر في السودان على تعزيز الأمن في معسكرات اللاجئين ومساعدة الحكومة في بناء مراكز استقبال مؤقتة، مع توفير الحماية القانونية بتمكينهم من الوصول إلى المحاكم، وبناء القدرات الوطنية فضلًا عن السعي الجدي لتقديم المساعدات للضحايا بتوفير الرعاية الطبية والدعم النفسي لهم.

ويكشف **براس** بعض الإحصائيات حول الاتجار بالبشر في السودان، فقد شهد العام 2013، 338 واقعة اختطاف، انخفضت في العام 2014 إلى 100 حالة، وهو ما يشير بحسب **براس** «**إلى الدور الإيجابي الذي لعبته استراتيجية مكافحة الإتجار بالبشر. فالسودان مثال جيد للتعاون معنا في مكافحة الإتجار بالبشر**»، على حد وصف المسؤول الأممي ■

جنوب السودان:

ليلى ذات الخامسة تعود إلى المنزل

عندما نشب القتال في قريتها في ولاية النيل الأزرق في السودان، كانت ليلى في طريقها إلى منزل جدتها سيرًا على الأقدام. لكن ليلى لم تعد إلى البيت، ما أفزع أسرتها ودفع والدها إلى طرق أبواب اللجنة الدولية للصليب الأحمر في نهاية المطاف طلبًا للمساعدة.

ياميلا كاسترو*

كان صباح ذلك اليوم لا يختلف عن صباح يوم آخر من أيام شهر حزيران/يونيو، إذ التفت الأسرة حول أكواب الشاي وبالنسبة **لليلى*** ذات الأعوام الخمسة، عادة ما يكون الشاي مصحوبًا بالبسكويت أو الخبز الطازج. وهو الحال في هذا الصباح. بعد تناولها وجبة الإفطار بفترة قصيرة، بدأت ليلى رحلتها سيرًا على الأقدام قاصدة منزل جدتها الواقع على بعد كيلومتر واحد من منزلها. اعتادت **ليلى** شراء البسكويت من متجر صغير بجوار منزل جدتها بعد إتمام الزيارة ثم العودة إلى أسرتها.

لكنها هذه المرة لم تعد. لقد رجع جميع الأطفال المفقودين أثناء القتال الذي اندلع في ذلك اليوم في غضون فترة زمنية قصيرة نسبيًا باستثناء ليلى، ما أصاب والدها **مصطفى** ووالدتها **ماجدة** بحالة اضطراب شديد. وعن ذلك يقول **مصطفى**: «**بحثت عنها في كل مكان، في الخنادق والغابات، وطفت 14 قرية. وأخذت أتنقل من مكان إلى آخر وسألت الناس إذا كان أحدهم قد رأى ليلى. لقد وصل بيَ الأمر إلى البحث عنها تحت الأنقاض المحترقة فلربما كانت هناك**». واسترسل قائلاً: «**بعد أيام من البحث، دارت بي الدنيا وأنا لا أعرف إلى أين أذهب. ونصحني البعض بالذهاب إلى المجلس القومي لرعاية الطفولة والإبلاغ عن فقدان الفتاة**». وفي المجلس، أشاروا على **مصطفى** بالذهاب إلى **اللجنة الدولية** لكونها تعمل على إعادة لم شمل الأسر التي فصلت الحدود بين أفرادها عله يتمكن هناك من تلقي المساعدة اللازمة.

وأخيرًا جاءت المكالمة

نجحت بعثتا اللجنة الدولية في **السودان** وفي **جنوب السودان** بفضل التعاون الوثيق القائم بينهما في العثور أخيرًا على **ليلى** في مخيم للّاجئين قريب من الحدود مع جنوب السودان. قال **مصطفى** بعد أن التقط أنفاسه: «**وأخيرًا، اتصلت بنا اللجنة الدولية وبشرتنا بالعثور على ابنتي وأرسلت لي صورًا لها. وساعتها فقط عادت شهيتي للطعام بعد أن عرفت الطمأنينة طريقها إلى قلبي**».

تولت بعثتا اللجنة الدولية المتابعة مع السلطات في البلدين لتعجيل سفر **ليلى** ولم شملها مع أسرتها. وقام قبل ذلك موظف ميداني يعمل مع اللجنة الدولية في **جوبا** بمرافقة الفتاة لإعادتها إلى أسرتها في **الخرطوم** في السودان.

تقول **ماجدة** والدة **ليلى**: «**لم أكن أتوقع على الإطلاق العثور على ابنتي. لقد قاطعت الزاد وكنت أبكي طوال فترة غياب ابنتي فقد ظننت أنني لن أراها مرة أخرى**». في نهاية كل يوم من البحث عن **ليلى**، كان مصطفى يعود إلى المنزل لتقابله **ماجدة** بسؤال واحد: «**هل عثرت على ابنتي؟**». وعن ذلك يقول: «**لم أكن أتحمل المكوث في المنزل، فكلما نظرت إلى زوجتي تساقطت دموعي**».

يعود **مصطفى** بذاكرته إلى الوراء قائلًا: «**ذهبت في أحد الأيام إلى رجل دين آملًا في سماع «بشرة خير». قال لي الرجل: «ابنتك على قيد الحياة وبصحة جيدة وهناك شخص كبير في السن يرعاها، كما أنها تلهو مع غيرها من الأطفال». شعرت بسلام نفسي كبير عند سماع كلماته**». كانت الأسرة بأكملها تنوي في اليوم المقرر لعودة **ليلى**، الذهاب إلى **الخرطوم** لاستقبالها. إلا أن عدم وجود سيارة كبيرة حال دون انتقال الجميع. قال **مصطفى** بكل سعادة: «**انتظر الجميع عودتها إلى قريتها بدلاً من السفر**». ويضيف الأبوان: «**نشعر بسعادة غامرة ولا نصدق أنها قد عادت بالفعل**».

ليلى تحب الغناء، بخاصة أغاني «**الدالوكا**» (المصحوبة بالطبلة السودانية)، وتقول أغنيتها المفضلة:

«كم هو رائع طعم القهوة مع الشربات
أنا لست وحيدًا، فحبيبي معي
حان الوقت يا عيني كي تغمضي
أنا لست وحيدًا، فحبيبي معي» ■

* Yamila Castro مسؤولة الإعلام في بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في جنوب السودان.

شامشاد عمر*

أفغانستان: هارون وشهزاد عادا لكنف عائلتهما

كانت عقارب الساعة تشير إلى تمام الحادية عشرة صباحًا، عندما تلقى **إسحاق** مكالمة هاتفية. كاد قلبه أن يتوقف عندما جاءه صوت زوجته وهي تصرخ في جزع: **«لم يعد الولدان إلى المنزل حتى الآن ولم يُعثر عليهما في أي مكان»**.

مضى على تلك الحادثة عام أو يزيد. على مدار الأسابيع التالية، استغرق **إسحاق**، وأفراد أسرته، وكل من اهتموا بأمره، في بحث مُضنٍ عن الولدين؛ **هارون**، 10 سنوات، **وشهزاد**، 9 سنوات، دون جدوى، وبدا أنهما اختفيا دون أدنى أثر.

كان **إسحاق** البالغ من العمر 38 عامًا يعيش في قرية نائية تابعة لمقاطعة **«بهسود»** بإقليم **«نانجارهار»** في شرق **أفغانستان**، أما مقر عمله فكان في وسط المدينة على بعد 30 ميلًا عن منزله. لم ينعم **إسحاق** بحياة مريحة، فقد عانى صعوبة في التعود على نمط معيشة كهذا، ومع ذلك فقد كان قانعًا.

يسترجع **إسحاق** هذه اللحظات من ذاكرته ويقول: **«اتصلنا بجميع الأشخاص الذين نعرفهم، وطرقنا جميع الأبواب، وبحثنا في كل مكان. لقد شعرنا بأننا فقدنا أجزاء من أجسادنا، وكانت فاجعتنا في فقدهما لا توصف»**.

لم يكن **إسحاق** الشخص الوحيد الذي فقد فلذات كبده، فهناك مئات الآلاف في **أفغانستان** فُقدوا أو تفرَّقوا عن عائلاتهم إبَّان عقود من الحرب التي لا يعلم أحد متى تنتهي.

خلَّف اختفاء ابني **إسحاق** فراغًا كبيرًا في حياة الأسرة، لم يكن ليعوِّضه أي شيء. دخلت الأمُّ في حالة اكتئاب شديد، وفقدت الكثير من وزنها بعد أن أخذ الأمل يذوي شيئًا فشيئًا في عودتهما، لكن حلمها بمجيء اليوم الذي يعودان فيه لم يتوقف يومًا.

تقول والدة **إسحاق**: **«تكالبت عليَّ الهموم ووقعت فريسة المرض. كنت أنتظر عودتهما كل يوم. كان يراودني حلم كل ليلة بأنني سوف أستيقظ يومًا لأجد حفيديَّ يلعبان في أرجاء المنزل من جديد، ويملآنه بضحكاتهما الصافية»**.

ذات يوم، التقى **إسحاق** بصديق له نصحه أن يذهب إلى مكتب **اللجنة الدولية للصليب الأحمر** في **«جلال أباد»** لتسجيل حالة فقد ابنيه.

يتابع **إسحاق** قائلًا: **«أخبرني صديقي بأن اللجنة الدولية تساعد في لمِّ شمل الأفراد بعائلاتهم. كان هذا خبرًا عظيمًا بالنسبة لي، إذ كنَّا نتلمَّس أي حبل من حبال الأمل يمكننا التشبث به»**. ويضيف: **«هناك في اللجنة الدولية سألوني بعض الأسئلة عن عمر طفليَّ، ومتى وكيف فُقدا. كانت المقابلة يسيرة لدرجة أنني ساورني الشك في أن تؤتي أي ثمار على الإطلاق»**.

يُعَدُّ برنامج «إعادة الروابط العائلية» من أهم البرامج التي تنفذها اللجنة الدولية في أفغانستان، وذلك إلى جانب الأنشطة الرئيسية الأخرى التي تشمل تعزيز القانون الدولي الإنساني، وحماية حقوق المدنيين والمُحتجزين، وتقديم الرعاية الطبية لضحايا النزاعات المسلحة، وخدمات جراحة وتقويم العظام، ومساعدة النازحين من جرَّاء النزاع.

ICRC

عندما نفقد أحد أحبائنا، يعيش أفراد العائلة والأصدقاء في حالة ترقب وقلق وهم ينتظرون عودة الغائب، يحاولون تلمُّس أخباره ومعرفة ما حلَّ به. هذه قصة إسحاق الرجل الأفغاني الذي عثر على ولديه بعد فراق دام أكثر من عام.

بعد تسجيل الحالة، شرع فريق اللجنة الدولية في **«نانجارهار»** في البحث عن الولدين. وبعد شهر أو نحو ذلك، تلقى الفريق تأكيدًا من زملائه في **«بيشاور»** بوجود طفلين تُطابق أوصافهما أوصاف الولدين المفقودين.

لم يدرِ الولدان كيف انتهى بهما المطاف في مدينة **«بيشاور»** الباكستانية عبر الحدود. وهناك تكفلت جمعية خيرية بتوفير السكن والطعام والماء لهما، كما سجَّلت حالتهما في مكتب اللجنة الدولية في **«بيشاور»**.

يقول **فؤاد** الذي يعمل موظفًا بقسم البحث عن المفقودين باللجنة الدولية للصليب الأحمر: **«سجلنا الحالة لدينا، في حين سُجل الأطفال في مكتب اللجنة الدولية في بيشاور... كل ما تبقى كان مجرد مسألة وقت، لنربط الأجزاء ببعضها وتتضح أمامنا الصورة الكاملة، قبل أن يتأكد الفريقان أن لدينا تشابهًا كبيرًا يصل إلى حد التطابق بين الحالتين»**.

وتابع **فؤاد** قائلًا: **«شعرنا بتفاؤل يشوبه الحذر. فكما أنك تتمنى أن يتحقق التطابق بين الحالتين، لكنك في الوقت ذاته لا ترغب في منح العائلة ومنح نفسك أي آمال كاذبة. لكن عند رؤية الصور، تعرَّف كل طرف من الطرفين على الآخر، بدا من الواضح للجميع أن هذه الحالة ستُحلُّ بشكل إيجابي»**.

ثم جاء وقت التئام الشمل. إذ لم يألُ الفريقان جهدًا في العمل على جمع شتات الولدين بعائلتهما. فاستقلَّا طائرة عادت بهما من **«بيشاور»** إلى **«كابول»**، في حين سافرت العائلة من **«جلال أباد»** إلى الوجهة ذاتها.

أخيرًا، بعد أكثر من عام من الفراق، وجد الولدان طريقهما إلى المنزل.

كان الطفلان يشعران بسعادة غامرة. بعد أن التأم شملهما بالعائلة، وقدمت لهما اللجنة الدولية ملابس جديدة، وحقائب مدرسية، وأحذية، ودفاتر للمدرسة.

يقول الطفل **«هارون»** ذو السنوات العشر متحدثًا إلى أحد موظفي اللجنة الدولية الحاضرين: **«لا أستطيع أن أعبر عن مدى سعادتي، كل ما يمكنني قوله هو أنني ما كنت حقًا أعلم ما إذا كنت سيُقدر لي رؤية عائلتي مرة أخرى أم لا. أعد والديَّ بأنني سأدخل السرور على قلبيهما، وأن ألتزم بالذهاب للمدرسة وأكون ابنًا صالحًا»** ■

* Shamshad Omar موظف بقسم الإعلام في بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في كابول.

محسن آزرم*

اللاجئون الأفغان في السينما الإيرانية: صورة الوطن قاتمة

دفعت عقود من الحروب المنهكة في أفغانستان أجيالًا من الأفغان إلى التماس اللجوء في البلاد المجاورة كباكستان وإيران. وفي هذه الأخيرة –التي تتمتع بمشهد سينمائي خصب– حاول مخرجون عرض بعض من حيوات هؤلاء المهاجرين في أفلامهم والتي كشفت النقاب عن صورة قاتمة للأوضاع التي يرزح تحتها هؤلاء اللاجئون.

* Mohsen Azarm
ناقد سينمائي إيراني بارز.

في مُقابلة أجريت مع الروائي الأفغاني **خالد حسيني** حول روايته «**عداء الطائرة الورقية**» (Kite Runner)، التي نفدت جميع نسخها وأذاعت صيته عالميًّا، تردد **حُسيني** قليلًا قبل أن يجد إجابة مقنعة عن سؤال حول سبب كتابته الرواية. ردَّ الروائي بالقول إن التفكير بالوطن يظلُّ هاجسًا لا يُفارق المُهاجر طوال حياته. فحتى بعد أن يقضي المرء أمدًا مديدًا بعيدًا عن مسقط رأسه، وتلازم لسانه لغة أخرى غير لغته الأم، فإن اللغة الأم لا تنفك عنه في جميع أحواله. يجد المهاجر نفسه في النهاية منتميًا لذلك المكان الذي أُجبر على تركه. ويبدو أن هذه هي الرسالة التي تبعثها الرواية. تُصوِّر الرواية حياةً، تغيرت بين عشية وضحاها على إثر انقلاب مُفاجئ، لم يدر بخلَد أحد أنه سيكون مقدمة لسنوات من الاضطراب الذي يعصف بالبلاد لسنوات تالية. الشخصية الرئيسة في الرواية تُدعى **أمير**، وهو كاتب يعيش في الولايات المتحدة الأميركية. يُضطر «أمير» - سعيًا لإنقاذ حياة صبيٍّ – إلى العودة إلى بلد مجهول بالنسبة إليه منذ زمن بعيد. إذ لا تتجاوز معرفته به ما يصله من وسائل الإعلام من أخبار حول حركة طالبان. لم تكن عودته تلك عودة مهاجر إلى وطنه، بل هي في الواقع مهمة لإنقاذ حياة صبي بإخراجه من **أفغانستان** ليحصل على تأشيرة إقامة دائمة في الولايات المتحدة، إيمانًا منه أن أفضل سبيل لضمان مستقبل زاهر لهذا المهاجر الصغير هي أن يهجر حياته المحفوفة بالمخاطر، وأن ينطلق نحو مستقبل مشرق في بلد آخر يتمتع فيه بكل حقوقه كمواطن.

تُعرف الهجرة بأنها انتقال الأفراد من مكان إلى آخر، سعيًا وراء فرص عمل وظروف معيشية أفضل. فعادة ما تلجأ جماعة من الناس إلى الهجرة عندما تتدهور ظروف البلد الذي يعيشون فيه، وما يترتب على ذلك من انعدام فرص العمل. ومتى انقطعت أمامك فرص العمل لكسب لقمة العيش، لا يتبقى أمامك إلا سبيل الهجرة. والآفة الكبرى التي تعيق سير أي مشروع ويتجرع بسببها الناس المآسي والويلات هي الحروب، لا سيما الحروب الأهلية التي تُعد السبب الرئيس للعديد من حالات الهجرة. كان الأفغان يستعدُّون لحدوث تغير كبير في منتصف سبعينيات القرن الماضي بُعيد الانقلاب الذي نفَّذه **داود خان** ضد **محمد ظاهر شاه**، وأعلن على إثره قيام نظام جمهوري. إلا أنه لم يجل بخاطر أحد يومًا أن «**حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني**» سيدبِّر هو الآخر انقلابًا على **داود خان**، وأن «المجاهدين» سيشنون حرب العصابات التي أدت في النهاية إلى تدمير البلاد وظهور «**حركة طالبان**». أجبرت الحروب الداخلية وحروب العصابات أعدادًا كبيرة من الشعب الأفغاني على الفرار من البلاد، واختار الفارون الذين لم يرغبوا اللجوء في باكستان الهجرة إلى إيران، ليعيشوا فيها محرومين من حقوقهم الإنسانية، ويفتقدوا منزلًا يجمعهم، سواء في مسقط رأسهم، أو في إيران.

ولذا، ليس من المُستغرب أن يستعين المخرج ●●●

مشاهد من أفلام متعددة، من أعلى إلى أسفل: مشهد من «راكب الدراجة»، مشهد من «جمعة»، مشهد من «باران»، ثم مشهد من «بضعة أمتار مربعة من الحب»

خالد حسيني

محسن مخملباف

مجيد مجيدي

جمشيد محمودي

الإيراني **مُحسن مخملباف** في فيلمه **الدرَّاج** (The Cyclist)، الذي أُنتج عام 1988، بشخصية المُهاجر الأفغاني ليُجسد حال «شخص شريد فقير» بحسب وصفه. يجد هذا الشريد نفسه مُكرهًا على فعل أي شيء ليكسب بالكاد ما يسد به رمقه. مال **مخملباف** نفسه منذ البداية إلى تجريد ذلك «الشخص الفقير الشريد» من الانتماء لخلفية أو هوية أو بلد مُحدد، ورأى -كما أشار عليه سينمائيون إيرانيون–أنه من غير المناسب اختيار شخصية مواطن إيراني ليُجسِّد هذا الوضع «التخيّلي»، كما يصفه **مخملباف** نفسه. واستقر على تجسيد شخصية **نسيم**، الدرَّاج البائس، الذي يعبر حاله عن صورة نمطية للشعب الأفغاني، وذلك سعيًا منه إلى أن تكون القصة عالمية متحررة من الحدود الجغرافية. ينشغل تفكير **نسيم** بالمال الذي ينبغي له أن يكسبه لتأمين تكاليف العلاج الطبي لزوجته؛ إذ يرفض الأطباء علاج الفقراء من المرضى. فيكون السبيل الوحيد أمامه لجمع هذا المال هو ركوب دراجته والسير بها في الطرقات دون انقطاع، متحمِّلًا جبالًا من الهمِّ، ومصارعًا الرغبة في النوم. ومع أن الفيلم لا ترتبط أحداثه بزمان أو مكان مُعيَّنين، وأن القصة تنتهي بأحداث تبدو أقرب إلى عالم الخيال، فإن تلك اللمحة البسيطة إلى الظروف الصحية للَّاجئين الأفغان كافية لإعطاء صورة عن أوضاعهم في إيران آنذاك، كما جسدتها السينما في تلك الفترة، وهو ما افتقدته الأفلام التي أنتجت لاحقًا حول المهاجرين الأفغان.

غير أن جانبًا آخر من حياة اللاجئين الأفغان تناوله فيلم **جُمعة** (Djomeh) للمخرج **حسن يكتبانه**. يروي الفيلم قصة حياة عامل أفغاني يعمل في مزرعة حيوانات بالقرب من **طهران**، ويتطلب عمله السفر إلى القرى المجاورة، ليقع تدريجيًّا في حب فتاة تعمل في متجر تديره عائلتها. وهنا تكشف القصة حقيقة أن **جُمعة**، بطل الفيلم، غادر موطنه قاصدًا إيران بقلب منفطر محاولًا نسيان ذكرياته المريرة. ولأنه لا يستطيع التقدم لخطبة الفتاة التي أحب، فإنه يطلب من صديقه الإيراني أن يطلب له يدها من أهلها. يُخبره صديقه من البداية أنه لا يعتقد أن العائلة ستوافق كونه ليس إيرانيًّا. لكن أمام إلحاح **جُمعة**، يذهب الصديق لطلب يد الفتاة لصديقه، ليتلقى الرد الذي توقَّعه.

بعد عام من إنتاج **جُمعة**، أخرج مجيد مجيدي فيلمه **باران** (Baran). تدور أحداث القصة في بناية شاهقة تحت الإنشاء يعمل فيها مجموعة من القرويين الإيرانيين وبعض العمَّال الأفغان المُشتغلين بالأعمال اليدوية. يتلقى **لطيف** – العامل الذي جاء من الريف الإيراني والمسؤول عن أعمال الصيانة وتغذية العمَّال– خبرًا بأن ابن عامل أفغاني مصاب سيحل محل والده في العمل. يتولى **رحمت** الابن اليافع أعمال الصيانة، وبالتالي يشكل تهديدًا على بقاء **لطيف** في وظيفته. يغضب **لطيف** لذلك ويقرر البحث عن طريقة لإيذاء **رحمت**. تستمر أحداث القصة حتى يكتشف **لطيف** يومًا ما أن **رحمت** في الحقيقة فتاة واسمها **باران**، أجبرت على التنكر في هيئة ذكر لتنال الوظيفة وتنفق على أسرتها في غياب الوالد. وهنا تتغير دفة الأمور، ويبدأ **لطيف** في تقديم يد العون لها، وتنقلب مشاعر العداوة والبغض شيئًا فشيئًا ليحل محلها حب وتعلُّق شديد. تظهر المشكلة عندما يصدر بيان بمنع العمَّال الأفغان الذين لا يحملون تصريح عمل من الاستمرار في أعمالهم. يذهب **لطيف** للبحث عن **باران**، وعندما تقع عيناه على الظروف المعيشية المتردية التي تعاني منها أسرتها، يقرر منحهم جميع مدَّخراته، ربما أملًا في الزواج من **باران**. يدرك **لطيف** إلى أي مدى قد تبلغ قسوة هذا العالم، عندما يتلقى أخبارًا تفيد بإلزام **باران** وعائلتها بمغادرة إيران.

أجبرت الحرب أعدادًا كبيرة من الأفغان على الفرار من بلدهم نحو إيران، ليعيشوا فيها محرومين من حقوقهم الإنسانية.

مع أن الكثير من الإيرانيات تزوجن من أفغان، إلا أن هذه الحقيقة لم تلقَ السينما الإيرانية الضوء عليها.

AFP

لاجئون أفغان

يتناول فيلم **حيران** (Heyran) من إخراج **شاليزة عارف بور** رواية مُغايرة للقصة ذاتها. في هذه القصة فتاة إيرانية تُدعى **ماهي** تقع في حب فتى أفغاني يُدعى **حيران**. تترك **ماهي** أسرتها وتسافر إلى طهران لتتزوج حبيبها. إلا أنه في أثناء انتظار قدوم مولودهما، يختفي **حيران** فجأة لتكتشف لاحقًا أنه رُحِّل إلى أفغانستان لكونه مهاجرًا غير شرعي. وهنا يظهر جانب آخر في الروابط التي يتعلق بها اللاجئ أكثر أهمية من المال وفرصة العمل. ومع أن الكثير من الإيرانيات تزوجن من أفغان، إلا أن هذه الحقيقة لم تلقَ السينما الإيرانية الضوء عليها، أو على الأقل لم يجر تناول هذه القضية بالقدر اللازم مع أهميتها. ويبدو أن الاتجاه العام هو محو أي أثر لهذه القصص وحجبها عن الشاشات الإيرانية، بالنظر إلى أن أبناء هؤلاء الإيرانيات محرومون من حقوقهم الأساسية بسبب انتماء آبائهم إلى الجنسية الأفغانية.

يُعد فيلم **بضعة أمتار مربعة من الحب** (A few square meters of love)، من إخراج المخرج الأفغاني الذي يعيش في إيران **جمشيد محمودي**، نسخة أخرى من فيلم **باران**، لكن بنهاية مأساوية. شاب إيراني يعمل وسط مجموعة من اللاجئين الأفغان في مصنع يقع على مشارف طهران يقع تدريجيًّا في حب فتاة أفغانية. ينشدان الخلوة في ساحة مهجورة تتراص فيها الحاويات القديمة، في الوقت الذي تشن فيه قوات الشرطة حملات تفتيش على المصنع لمنع اللاجئين الأفغان من العمل فيه وترحيلهم. لا يجد والد الفتاة بُدًّا من مغادرة إيران. لكن الشاب، الذي لا يُطيق فراق حبيبته، يلجأ إلى مدير المصنع طالبًا منه التدخل. غير أن والد الفتاة يرفض تمامًا فكرة زواج ابنته من إيراني، ليكون مصير العاشقين أن يُدفنا أحياء داخل حاوية مُغلقة. وتعد هذه ربما أكثر نهايات الأفلام التي عصرت قلوب المشاهدين من فرط مأساويتها. لكن المخرج الأفغاني اختارها لقصته في محاولة منه لتصوير جانب آخر للمصاعب التي يُكابدها اللاجئون الأفغان في إيران. أولئك المهاجرون الذين لطالما تجرَّعوا صنوفًا من المعاناة والمرارة لسنوات طوال، لدرجة أنه بات من الصعب عليهم تصديق أن يومًا ما ستمتد إليهم يد أحدهم بالعون ■

الأفريقي

علاء خالد*

لقرون ظل «الأفريقي» بمثابة النموذج الخام لبشاعة التهجير القسري، ينفصل عن سلالته المادية والمجازية في رحلة طويلة مضنية تحاول إجباره دومًا على قطع كل صلة له بموطنه. إلا أن ذلك «الأفريقي» جاهد وكافح كي يُبقي على ذاكرة قوية، تختزن تفاصيل رحلة التهجير القسري الحزينة.

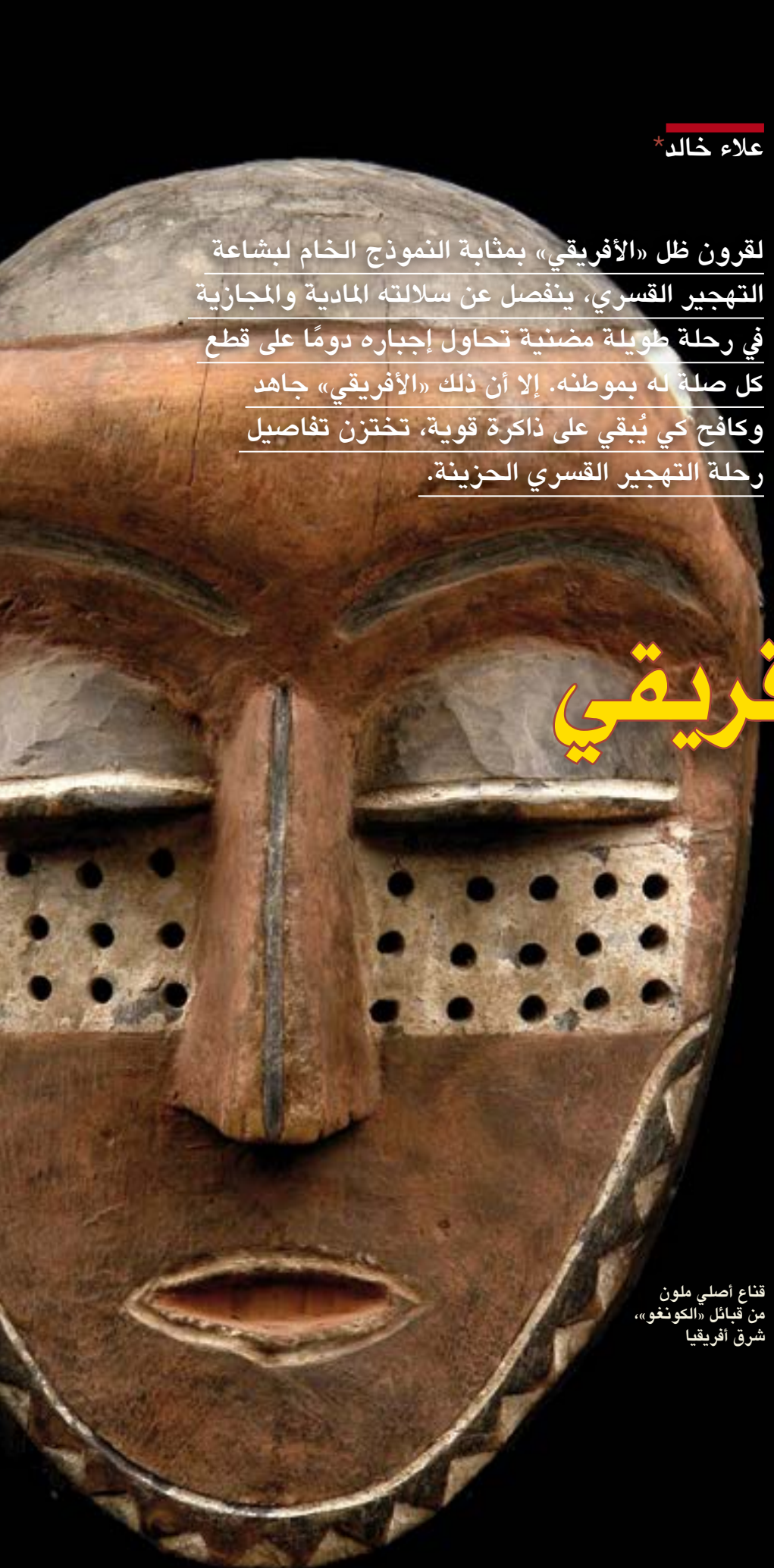

قناع أصلي ملون من قبائل «الكونغو»، شرق أفريقيا

الأفريقي الأسود، ذلك الكائن المتصور على أنه «الضعيف والمستعبد»، والذي سار مع مراكب الغزو البرتغالي والإسباني والإنجليزي، ليصبح «سلعة» وتجارة هامة تعبر المحيط الهادئ، من أفريقيا للعالم الجديد في الأمريكتين، ولأجزاء أخرى من العالم وصل إليها هذا اللون الصريح غير المهجن. دائمًا ما كانت هناك رغبة في استعباده، فاللون الأسود هو لون القوة والتحمل والتفاني في العمل. تشعَّب جهده في الغابات، يقطع الخشب، ويجفف المستنقعات، ويشارك في الحروب، التي لم يكن سببًا فيها، ولكن قوة جسده كانت أحد رؤوس أموالها واستثماراتها المضمونة. عبرَ المحيطات في باطن السفينة، كالنبي يونس، لا يخرج لسطحها إلا فيما ندر، ربما عندما يمرض، أو ليُلقى به في البحر لو مات أثناء رحلة الانتقال للمنفى الجديد. شهور والسفينة تبحر بعيدًا عن أية أرض. ربما رحلة السفينة هي بداية المنفى، تتغير جغرافية الوطن في عينيه، يتحول الكون لبساط مائي مترجرج، يغيب حس الأرض والأحراش ويرتفع قالب أقدامه وذاكرته عن أرضه الأولى.

يسافر كما هو باللباس الخفيف المرتجل الذي لا يستر جسمه، ويكشف مساحات كبيرة منه، أغلب الوقت يقضيه عاريًا، كأنه لم ينفصل عن الأصل المرتجل الذي عاش فيه في الغابات. ولكن الغابة لم تنتقل معه، انتقلت معه فقط آخر صورة له، وهو يتم قنصه هناك، بعد أن تحول إلى جزء من سجنها أو إحدى أشجارها الميتة. يسافر باللباس الخفيف المرتجل، والسلاسل تطوق عنقه وآثار الختم المعدني الساخن على جسده، كختم الأسرى، وبجواره شباك الصيد التي كانوا يقتنصونه بها من الغابات أو من جوار الأنهار. هذه هي الصورة الخالدة لهذا النموذج

* روائي وشاعر مصري

المعذب، الذي فرش لونه الأسود على كل البحار والقارات، كبقعة حبر نقية تمتزج بمياه هذه القارات عقابًا لها على الصمت، وأنها حملت على ظهرها هذا الكم من صراخ أحد ألوان الحياة الأساسية. الفريسة العاقلة التي غالبًا ما تسقط في الشباك، لأنها خائفة على الدوام، الخوف كان يشل قدرتها على الهرب، مع الوقت أصبح الخوف إيمانًا، فهناك سفن وتجار ينتظرون في أقرب ميناء، وهناك مزارع ومراكز ومستعمرات جوعانة لهذه السلعة الرخيصة، وقرون وسطى خرساء أمام هذا النوع من الاستعباد، وهناك أيضًا خيانات داخلية، ونيران تحوط بالقرى من كل جانب.

في رواية «جذور: ملحمة عائلة أميركية»، للروائي الأميركي أليكس هيلي (Alex Haley)، التي يروي فيها رحلة استعباد أحد أجداده «كونتا عمر كنتي»، من قرية «جفور» بغامبيا، ووصوله لأميركا ورحلته هناك حتى إلغاء العبودية. يحكي كيف كان يتم «اصطياد العبيد»، بمساعدة أناس من بني جلدتهم، بأن يشعلوا النيران في تلك القرى، ويبدأوا في حصد الناجين، أما الكبار والعجزة فكانوا يتخلصون منهم.

كان أحد قوانين «الرجل الأبيض» ألا تقام «للعبد» جنازة حتى لا تتحول لمظاهرة حزن ضده، وأن يُجلد لو نظر للأبيض في عينيه. هذا القانون، خلق لهذا «العبد/ الإنسان» مجالًا أرضيًا منخفضًا تتحرك فيه نظراته، أو ربما جعله ينظر داخل قلبه أكثر، ويرى هناك ما يقع وراء هذه المستعمرات. وربما شرَّع «الأبيض» هذا القانون ضمن ما شرَّع من قوانين في عصور صماء، ربما شرَّع هذا خوفًا من أن ينظر في عين ضحيته كما يتلافى الصياد أن ينظر في عين الغزالة الدامعة فيتراجع عن قتلها، ويتراجع «الأبيض» عن جريمته، ويمنحه حريته. كان «الرجل الأبيض» يحصن نفسه من أية رحمة قد تطوف بخياله.

كانت هناك مراكز وموانئ لتجمع العبيد الأفارقة ثم إعادة توزيعهم على خريطة العالم. أهم هذه المراكز كانت في جزيرة زنجبار التي تقع على المحيط الهندي وبها قلعة سوق العبيد. داخل هذه القلعة هناك أربع غرف بحجم عشرين مترًا للواحدة، في كل منها كان يُكدس نحو مائة وخمسة وسبعين «عبدًا»، أو إنسانًا على وشك أن يبدأ رحلة الاستعباد إلى أوروبا والأميركتين. تحولت هذه القلعة إلى متحف عام 1996. هذا المتحف هو صدى صوت هذا الأفريقي، الذي أينما حل وضع نقطة سوداء على خريطة الاضطهاد في العالم، لنسير وراءه، وراء ذكرى عذاباته في رحلة العبودية. وهناك أيضًا المتحف المفتوح الذي يبدأ من نقطة الأصل حتى الأمريكتين، شاملًا كل بلاد العالم الحديث.

البرتغاليون كانوا أسياد العالم في القرن الخامس عشر، في جوب البحار والسيطرة على الثغور واحتلالها، وبالمرة في صيد وتجارة العبيد على الساحل الغربي لأفريقيا. جعلوا هذا القرن «قرنًا أسود» من هذه التجارة. ثم توالت الدول في هذا السباق الاستعبادي فدخلت إسبانيا في القرن السادس عشر، ومن بعدها إنجلترا وفرنسا وهولندا والدنمارك وأمريكا. حملوهم للخدمة في المزارع والمستعمرات بالسخرة أو بأود حياتهم بدون أى وفرة قد تشعره بإنسانيته. لم ير نفسه في مرآة أي وفرة، حتى في اللون. لا نقود، لا حُبَّ، لا جنس، لا نساء، باستثناء وفرة الغناء الحزين، الذي حفظ بداخله حزن حياته أثناء الرحلة.

أحيانًا كان الاستعمار يقودهم لبلاد محتلة ليعملوا في مستعمراتها. وبالفعل كان الاستعباد أحد متطلبات سوق العمل الاستعماري. خلط الاستعمار أقوامًا مُستعبدة بأقوام محتلة، ضاعف من نقص أساسي: الحرية خارج وداخل البلاد، كأنه

CHARLESTOWN, *April* 27, 1769.

TO BE SOLD,

On WEDNESDAY *the Tenth Day of* MAY *next,*

A CHOICE CARGO OF

Two Hundred & Fifty

NEGROES:

ARRIVED in the Ship COUNTESS of SUSSEX, THOMAS DAVIES, Master, directly from GAMBIA, by

JOHN CHAPMAN, & Co.

*** *THIS is the Veſſel that had the Small-Pox on Board at the Time of her Arrival the 31ſt of March laſt: Every neceſſary Precaution hath ſince been taken to cleanſe both Ship and Cargo thoroughly, ſo that thoſe who may be inclined to purchaſe need not be under the leaſt Apprehenſion of Danger from Infection.*

The NEGROES *are allowed to be the likelieſt Parcel that have been imported this Seaſon.*

إعلان في العام 1769، بتشارلز تاون، بمدينة بوسطن، الأمريكية، لبيع «شحنة من مائتين وخمسين زنجيًا» (حسب النص) قادمة من غامبيا، بأفريقيا.

يجري تجربة في أحد المعامل، وينتظر ميلاد المزيج الجديد. وربما لم يكن يهمه هذا، يهمه فقط من يزرع ويفلح ويحصد. بينما هو يقف هناك على رأس المستعمرة أو المزرعة من مكان عالٍ يراقب بطاقم من الحراسة مُدَجج بالأسلحة سير العمل في هذا السجن الحديث.

كان العبد يتم قنصه من وسط سلالته المادية والمجازية، ينفصل عنهم، قسرًا، هذه الرحلة الفردية بامتياز بعيدًا عن أي ادعاءات جماعية أو حنين أو روابط جمعية، الرحلة الأسمى الإجبارية لتقشف العاطفة. وأي شيء ستقع عليه عينه في هذا الوطن قبل مغادرته، هو نهائي. وأي وداع بينه وبين آخر سواء في موطنه قبل أن يغادره أو في بلد الاستعباد؛ أيضًا هو وداع نهائي لا رجعة فيه. حتى أولادهم الذين ولدوا هناك ينفصلون عنهم ويتم بيعهم كإحدى الثمار المفصولة عن الشجرة الأم. لا يريدون لهم تكوين عائلة وإعادة نموذج الروابط للمكان الأصلي داخل المنفى الجديد. لم يكونوا يريدون لهم الالتفاف حول أي رمز أو مصطلح يجددون عبره رباطهم بمكانهم وبإنسانيتهم. يريدونهم دائمًا فرادى، خيوطًا مهترئة باستمرار.

ولكن بالرغم من هذه لم ينس «الأفريقي» عاطفته في رحلته، لم ينس حزنه، صحبه معه، صحب معه رحلة انسلاخه عن هذا الجسد الجمعي، وحيثما استقر غنى غناءً حزينًا سجل فيه كل شيء، حتى لا ينسى، أو لا ينسى أحفادُه، فهو لن يعيش ليرى دورة استعباده تعاد من البداية وتتحول لذكرى. لقد ربطت هذه الرحلة، بدون أن يقصد، بين لون وحزن وبراءة موطنه الأصلي، وبين الأطراف الجديدة التي وصل إليها بلونه سريع الانتشار، وبحزنه الأزرق المتفرد.

كان خروجه من موطنه الأصلي يعني أنه لن يعود مرة أخرى، الانفصال المادي عن أي معنى مركزي كالوطن، وداخل هذه الرحلة كان هو المادة الأولية التي يجرب فيها العالم الجديد طريقته الجديدة في الحياة، يجرب فيها قسوته على نفسه، وابتعاده وانفصاله عن أي سجن حميم كالوطن أو الأمومة أو الأبوة. ولكن «الأفريقي» لم يكن منتبهًا للتحولات التي تحدث داخله، فقد كان عنده ما يشغله، لم يكن عنده الوقت ليفكر في التكوين الجديد الذي أصبح يحوزه. كان يقف وما زال على مقربة من حضن العائلة، وسلالتها.

حدث شيء لم يكن في الحسبان أثناء رحلة الاستعباد، أن هذا «الكيان الهش والضعيف» واللون المستعبد، تسرب كثقافة إلى كل الجهات التي وصل إليها، وأصبح اللون أساسيًّا عند كل شعوب الأرض، بعد أن كان محددًا برقعة جغرافية. لقد حمل معه لونه وثقافته أينما ذهب، وانتشرت أغانيه وأطعمته، وطريقته في الحياة وأيضًا حزن رحلة استعباده. لقد تجاوز بضعفه وهشاشته حدود لونه ومكانه، أصبح هناك وطن عالمي لهذا الأفريقي الأسود هو وطن العالم. هو الجدير بلقب مواطن العالم، أكثر من أي جنسية أخرى. لقد فرض نفسه عن طريق الاستعباد، لأنه يملك اللون الصريح الذي لا يقبل القسمة، كالمعدن النقي الذي تبنى عليه الحضارات. أصبح الاستعباد جزءًا من حركة انتقال الثقافة، فالثقافة رحلة استغلال من مكان لآخر، تجارة غير مرئية.

شعوب كثيرة استعبدت ولكنها ظلت في مكانها، كثقافة وكطموح، ولم تنتشر في العالم رغم أهميتها. أما الأفريقي ولأنه تحمل الجزء الأكبر من العذاب، ولأنه استُعبد وهو مسافر، استُعبد وهو سائر، استُعبد وهو هارب، وهو مذعور، وهو خائف؛ فحمل معه لونه وثقافته أينما ذهب، وأينما وصلت به مراكب الغزو ■

AFP

كان أحد قوانين «الرجل الأبيض» ألا تقام «للعبد» جنازة حتى لا تتحول لمظاهرة حزن ضده

لم ينس «الأفريقي» عاطفته في رحلته، لم ينس حزنه، صحبه معه، صحب معه رحلة انسلاخه عن هذا الجسد الجمعي

وثائق للجنة الدولية تحكي قصص 100 عام من اللجوء

دانييل بالميري*

لا يُعد اللجوء سمة لمواطني العالم الثالث فقط، فقد تعرضت القارة الأوروبية لأزمات نزوح كبرى في العقود الأولى من القرن العشرين. يستعرض هذا المقال بعضًا من هذه الأزمات، ويكشف عن حالة نجاح لمنظمات الإغاثة في مواجهة المعضلات الإنسانية المفاجئة الناجمة عن الاضطرابات والنزاعات المسلحة في فترة ما بين الحربين العالميتين.

شاخت ذاكرة القارة العجوز أوروبا وأصابها الوهن، إذ نسيت أنها استقبلت خلال القرن العشرين مئات الآلاف من المهاجرين كلاجئين. فخلال ثورة العام 1917 الروسية، والحرب الأهلية التي تلتها، لاذ نحو مليون روسي بالفرار إلى أوروبا. حصل مائة ألف منهم، ممن عَلِقوا في **القسطنطينية (إسطنبول)** على مساعدات، بطريقة أو بأخرى، من البعثات العسكرية الفرنسية والإنجليزية والصليب الأحمر الأميركي والصليب الأحمر الروسي السابق. لكن احتياجاتهم لم تكن على مستوى المساعدات الغذائية أو المادية فحسب، فقد كانوا بحاجة أيضًا إلى وثائق هوية، وبلد يستضيفهم، وعمل يقتاتون منه.

وأمام هذا الحجم من التحديات المختلفة، ما كان من اللجنة الدولية للصليب الأحمر إلا أن دعت إلى عقد مؤتمر دولي في شباط/ فبراير من العام 1921 بمشاركة **عصبة الأمم** و**منظمة العمل الدولية** و**رابطة جمعيات الصليب الأحمر والاتحاد الدولي لإغاثة الأطفال** ووزارة الخارجية الفرنسية و**الصليب الأحمر الروسي** آنذاك. وأسفر النقاش عن إنشاء **مفوضية سامية لشؤون اللاجئين الروس** تتبع **عصبة الأمم** وتتولى توحيد جهود المنظمات الخاصة. واقترحت **اللجنة الدولية** تحديد الوضع القانوني لهؤلاء اللاجئين، الذي لم تكن له ملامح واضحة في ذلك الوقت. كما اقترحت توفير عمل لهم في البلدان التي يصلون إليها بأمان. بيد أن اللجنة الدولية أكدت الحاجة إلى تنظيم عودة هؤلاء اللاجئين بعد حين إلى وطنهم في روسيا.

أيدت **الجمعية العامة لعصبة الأمم** أفكار اللجنة الدولية وعينت **فريديتوف نانسن (Fridtjof Nansen)** كمفوض سام لشؤون اللاجئين في 27 حزيران/ يونيو 1921. وحظي **نانسن**، الذي شغل منصب «مفوض عصبة الأمم السامي المعني بإعادة أسرى الحرب»، بمساعدة اثنين من النواب، عملا مندوبين للجنة

ICRC

صورة من العام 1922 وفيها يفحص فريديتوف نانسن الغذاء المقدم للاجئين خلال المجاعة الروسية

ICRC

صورة تعود لـ أيار/ مايو 1924، وفيها يظهر (واقفا في يمين الصورة) إتيان كلوزو الخبير في شؤون المهاجرين في عشرينيات القرن الماضي

الدولية، وهما **إدوارد فريك** (Edouard Frick) و**جان–شارل دي واتفيل** (Jean–Charles de Watteville). وبالتوازي مع ذلك، جرى اقتراح تنظيم مؤتمر دولي شاركت فيه عشرة بلدان معنية بالمسألة وممثلون عن اللجنة الدولية ورابطة جمعيات الصليب الأحمر والاتحاد الدولي لإغاثة الأطفال. وقد بحث المؤتمر النهج الواجب اتباعه لتوطين اللاجئين في بلدان مضيفة، وإصدار وثائق هوية لهم، وتزويدهم بمساعدات إغاثة، وذلك بالتعاون الوثيق مع المفوضية العليا الوليدة.

واعتبارًا من تلك اللحظة، أصبح من الممكن تنظيم المساعدة المقدمة للّاجئين الروس وتوسيع نطاقها. وتمكنت العديد من هيئات الإغاثة من العمل إلى جانب اللجنة الدولية والرابطة لتقديم مساعدات تحت رئاسة المفوض السامي **نانسن** ونائبيه. كما أرسلت المفوضية العليا موظفين اختير معظمهم من بين مندوبي اللجنة الدولية للإشراف على العمليات. وكثيرًا ما مارس هؤلاء الموظفون المهام الموكلة إليهم في ضوء عملهم المزدوج لدى اللجنة الدولية والمفوضية العليا في آنٍ واحد، وباشروا أنشطة لصالح المنظمتين في البلدان التي لهما وجود فيها. وبفضل اللجنة الدولية والفكرة التي خرجت بها، صدر جواز سفر في العام 1922 للاجئين الروس عديمي الجنسية. وفي وقت لاحق، بات هذا الجواز، المعروف باسم «**جواز سفر نانسن**» (Passeport Nansen)، يُمنح للاجئين آخرين لا سيما الأرمن.

ويُعدُّ الأرمن الفارون من عمليات إبادة جماعية سقطوا ضحيتها في الشرق الأوسط، ثاني أكبر فئة استفادت من أنشطة المفوضية العليا اعتبارًا من العام 1924. وكلفت المفوضية العليا مندوب اللجنة الدولية في روسيا **فولديمار فهرلين** (Woldemar Wehrlin)، بدراسة الإمكانيات المتاحة أمام إعادة توطين الأرمن في جنوب روسيا. وعندما صار المفوض السامي للاجئين الروس يعمل تحت قبة منظمة العمل الدولية في العام 1925، عُين أمين اللجنة الدولية **إتيان كلوزو** (Etienne Clouzot) خبيرًا في شؤون المهاجرين لدى المنظمة. وفي بداية ثلاثينيات القرن العشرين، بات «**جواز سفر نانسن**» يُمنح أيضًا للآشوريين والأقليات الدينية الأخرى في الإمبراطورية العثمانية السابقة.

وانتهى المآل بآلاف المهاجرين الروس أيضًا في الشرق الأقصى، وخاصة في الصين. وحصل مائة ألف منهم على وضع لاجئ، ما أهلهم للهجرة إلى بلدان ما وراء البحار. وأرسلت اللجنة الدولية في آذار/ مارس من العام 1925 بالتعاون مع **منظمة العمل الدولية**، أحد مندوبيها وهو **هنري كوينو** (Henri Cuénod) في مهمة إلى الصين و**منشوريا** لتقييم أوضاع اللاجئين الروس هناك وفي جميع مناطق وجودهم. وسمحت هذه المهمة التي امتدت حتى نهاية العام 1926، بتوطين عدة آلاف من اللاجئين الروس في أميركا الجنوبية، بينما استقر المقام بالنسبة لغيرهم في الصين بشكل دائم.

وبرهنت مسألة اللاجئين الروس والأرمن في فترة ما بين الحربين العالميتين على كيفية نجاح المؤسسات الإنسانية، ليس فقط في التعاون فيما بينها لمواجهة معضلة إنسانية مفاجئة، وإنما مع مؤسسات سياسية دولية مثل **عصبة الأمم** و**منظمة العمل الدولية**. ويعيد هذا المثال إلى الأذهان الجهود التاريخية التي بذلتها اللجنة الدولية في قضية الهجرة القسرية. فالفضل لا يعود بالأساس إلى **اللجنة الدولية** فحسب في إرساء نظام مكن **عصبة الأمم** ثم **الأمم المتحدة** من وضع برامج للمساعدة لصالح اللاجئين وذلك نتيجة لتنظيمها مؤتمر شباط/ فبراير 1921، وإنما لأنها وسعت نطاق نشاطها ليشمل اعتبارًا من ذلك الوقت هذه الفئة الجديدة التي أصبحت تعرف بضحايا النزاعات المسلحة.

وهكذا، وبالتوازي مع أزمة اللاجئين الروس، عملت اللجنة الدولية أيضًا لصالح مئات الآلاف من النازحين اليونانيين والأتراك بعد الحرب التي نشبت بين هذين البلدين (1919–1922). وأرسلت اللجنة الدولية مندوبًا لها إلى اليونان، وهو **رودولف دي ريدنغ–بيبريغ** (Rodolphe de Reding–Biberegg) لتنسيق أنشطة الإغاثة لصالح اللاجئين اليونانيين القادمين من **آسيا الصغرى**. وكلف المندوب على وجه الخصوص بمتابعة بناء قرى نموذجية لاستقبال اللاجئين وإقامة مستوصفات ومطابخ متنقلة. وبعد الحرب العالمية الثانية، نشطت المؤسسة مرة أخرى وعملت على الخطوط الأمامية لمواجهة المصاعب الإنسانية التي تواجه من لا مأوى لهم. وبالإضافة إلى دور اللجنة الدولية الرائد في إصدار «**جواز سفر نانسن**»، فقد أصدرت أيضًا وثيقة سفر يستفيد منها آلاف اللاجئين من عديمي الجنسية، مما سمح لهم بالحصول على مستقبل أفضل. ولا تزال وثيقة السفر هذه تصدرها المنظمة حتى يومنا هذا ■

ICRC

صورة من العام 1923 لعناصر جمعية الهلال الأحمر التركي وهم يساعدون بعض اللاجئين على مركب خلال الحرب التركية – اليونانية.

بفضل اللجنة الدولية صدر جواز سفر لأول مرة للاجئين الروس عديمي الجنسية في عام 1922

بات جواز السفر المعروف باسم «جواز سفر نانسن»، الذي تصدره اللجنة الدولية يُمنح للاجئين آخرين

* Daniel Palmieri باحث ومؤرخ باللجنة الدولية للصليب الأحمر في جنيف

يُوصف القرن التاسع عشر بأنه «عصر الهجرة الضخمة». أدى ارتحال ملايين البشر شرقًا وغربًا إلى تأسيس دول، وتشكيل مدن، ورسم فضاء حضري جديد للعالم. وهناك أمثلة عديدة للدور الإيجابي الذي لعبه المهاجرون في البلاد الجديدة التي حلوا بها. لسكان سورية الكبرى الذين ارتحلوا إلى مصر قصة طويلة في هذا المضمار.

الشوام في مصر: الارتحال إلى النهضة

في العام 1834، أخرج الرائد المصري الكبير **رفاعة رافع الطهطاوي** (1801–1873) أول وأشهر مؤلفاته: «الديوان النفيس في إيوان باريس أو تخليص الإبريز في تلخيص باريز»*، يسرد فيه تفاصيل ما مر به إبان إقامته بفرنسا في عشرينيات القرن التاسع عشر، وما شاهده من علامات التمدن التي بلغها هذا البلد. لم تكن الهجرة إلى فرنسا في ذلك الزمان بالشيء المألوف. لذلك، استهل كتابه–الذي حظي بذيوع كبير في سنوات القرن التاسع عشر– بجملة معبرة، عدد فيها أسباب هجرته المؤقتة، فكتب: «في ذكر ما يظهر لي من سبب ارتحالنا إلى هذه البلاد، التي هي ديار كفر وعناد». كان من الأسباب التي ساقها **الطهطاوي** لأسباب الارتحال الوقوف على أسباب بلوغ فرنسا والفضاء الأوروبي عامة حالة «التمدن» التي بها «قويت شوكة الإفرنج». أي أن الرحلة كانت لاستقصاء أسباب النهضة عند غيرنا. مثلت العقود التالية لرحلة الطهطاوي عصرًا ذهبيًا للهجرة. هو زمن ارتحال البشر طوعًا أو كرهًا إلى فضاءات جغرافية غير مألوفة (فرنسا بالنسبة للعرب مثلًا)، وهو زمن انتقال الجيوش الاستعمارية، والأفكار التنويرية. هو العصر الذي حول خيال الانتقال إلى الأماكن البعيدة إلى حقيقة ماثلة للعيان بفضل السفن البخارية وخطوط السكك الحديد. انزوت السفن الشراعية لتحل محلها السفن البخارية الضخمة، والتي مخرت عباب المحيطات. وأصبح شهر واحد أو أقل هو المدة التي يحتاجها المرء للتنقل عبر ضفتي الأطلنطي. يذكر مؤرخون أن «عصر الهجرة الضخمة»– ويقصدون به موجة النزوح غير المسبوقة إلى الضفة الغربية للأطلنطي منذ منتصف القرن التاسع إلى أوائل سني القرن العشرين، ساهم بـ 40 في المائة من النمو السكاني في الولايات المتحدة الأميركية (في أواخر القرن التاسع عشر). أما السكك الحديد، فقد نهَبت الأرض وقطعت مسافات، وبمقتضاها تمكن سكان القاهرة في النصف الثاني من ذلك القرن من الانتقال بيسر إلى شاطئ المتوسط أو إلى مدن الدلتا في غضون سويعات قليلة.

موجات الارتحال الشامي

ضرب ترحال القرن التاسع عشر المشرق العربي. وفدت إلى بعض بلاد المنطقة تيارات بشرية لا حصر لها ولا عدد، حملت معها البضائع والأموال والأحلام وأيضًا الأفكار. دفع هذا بعض أرباب القلم للحديث عن ذلك القرن بوصفه «زمن اليقظة بعد الخفضة» نتيجة «الاختلاط أي اختلاط الغرب بالشرق». وهذه تعبيرات صكها المستشرق المقيم في لبنان **إدوارد كرنيليوس فانديك** Cornelius Van Allen Van Dyck (1818–1895)، في كتابه «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع». لـ **كرنيليوس** هذا وصايا لكل من ضاق به المقام في لبنان، خوفًا من البطش أو القمع بسبب الاختلافات الدينية أو العرقية. تمثلت الوصية في الارتحال إلى مصر. كانت مصر–خلافًا لمعظم بلاد الشرق –تنعم بدرجة ما من الحرية. وعليه استقبلت أمواجًا من العائلات التجارية الشامية، والنخب الفكرية، وكذلك المغامرين، الذين أحدثوا هزَّةً لم تعهدها أرض الكنانة من قبل.

بدأت موجات الارتحال الشامي –وتعني تلك المساحة المترامية في شرق المتوسط من قاطني سورية ولبنان وفلسطين – مع عصر **محمد علي باشا** (تولى من 1805 إلى 1848)، عندما فُتحت الأبواب للمهاجرين للقدوم لاستثمار الأموال. في تلك الأثناء، كانت بلاد الشام قد بدأت في وضع لبنات نهضة فكرية منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر بتأثير من الإرساليات الأجنبية. وخلال سني القرن التاسع عشر، ظهرت ملامح هذه النهضة واضحة في إحياء اللغة العربية وأساليب الكتابة الجديدة، بعد موات لعدة قرون. قاد لواء هذه النهضة رواد وُلدوا بدايات القرن التاسع عشر كاللبناني ذي الأصول الحمصيَّة **ناصيف اليازجي** (1800–1871)، واللبناني **بطرس البستاني** (1819–1883)، مؤلف أول موسوعة معارف عربية (دائرة المعارف)، مرورًا باللبناني الموسوعي **فارس الشدياق** (1804–1887). لهذا الأخير أهمية بالغة من كونه وبحق رحالة القرن التاسع عشر الأبرز عربيًا. حل الأخير ضيفًا على مصر، فأقام بها فترة من الوقت، وفيها زامل **الطهطاوي** في تحرير الجريدة الرسمية للدولة المصرية آنذاك «الوقائع المصرية»، قبل أن يشد رحاله إلى الشمال: مالطا وفرنسا وبريطانيا مرورًا بتونس، حتى استقر أخيرًا في **إسطنبول**، عاصمة الدولة العثمانية. وخلال رحلة الارتحال الطويلة هذه (قضى ثُلث عمره تقريبًا متجولًا في أوروبا) صنف مؤلفات يعز نظيرها في أدب رحلة القرن التاسع عشر. فكان أسبق العرب الذين كتبوا عن بريطانيا الحديثة، وتشبه بالطهطاوي فخط سطورًا عن فرنسا –وإن كان بدرجة أقل عمقًا– كما تشهد كتبه «الساق على الساق في ما هو الفارياق» و«الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة» و«كشف المُخبأ عن فنون أوروبا».

حضور مرحب به

حلت ستينيات القرن التاسع عشر ومعها الموجة الأكبر للانتقال الشامي إلى مصر. وجدت مئات العائلات اللبنانية في مصر ملاذًا من جحيم الحرب الأهلية في جبل لبنان 1860. قصدت هذه العائلات مصر للاستفادة من جو الحرية الفكرية النسبي الذي وفره مجيء **الخديو إسماعيل** (تولى الحكم من 1863 إلى 1879). كان **إسماعيل** كجده **محمد علي**، حاكمًا تحدوه الرغبة في مشروع إصلاحي كبير. لم يكن تأثير هذا المشروع –مصر قطعة من أوروبا– سطحيًا، وإنما ضرب أعماق المجتمع المصري. مضى **إسماعيل** في تطبيق بنود اتفاقية التجارة الحرة التي وقعتها الدولة العثمانية مع بريطانيا، والتي أتاحت الفرصة لموجات متلاحقة من الهجرات، قادها رأسماليون ومغامرون ومضطهدون. استفاد الشوام من هذه التطورات. وفدوا بالآلاف إلى مصر. وسرعان ما شكل وجودهم وأعمالهم وشركاتهم وصحفهم وكنائسهم حقيقة في المجتمع المصري، قلما تمتعت به أي أقلية «أجنبية» أخرى. في الواقع لم يكن الشوام أجانب بالمعنى القانوني للكلمة آنذاك. فقد دأبت الوثائق وتقارير التعداد السكانية المصرية على وصفهم بتعبير «من بلاد الدولة العليَّة» (أي الدولة العثمانية)، فيما انسحب لفظ الأجانب على الأفراد من الدول الأوروبية كفرنسا وإسبانيا والبرتغال وهولندا. تركز وجود الشوام في القاهرة والإسكندرية ومدن الدلتا. وتذكر الإحصاءات الرسمية المصرية، مثل إحصاء العام 1897***، الحضور المميز للأجانب عمومًا، ولتابعي الدولة

أحمد زكي عثمان

بشارة تقلا

سليم تقلا

جُرجي زيدان

العليَّة في الأقسام الرئيسة (الأحياء) لـ «محافظة مصر» (أي القاهرة). بلغ عدد الأجانب عمومًا أكثر من 6 في المائة من سكان هذه الأحياء. وشكل تابعو الدولة العليَّة، ومنهم نسبة لا بأس بها من الشوام، نحو اثنين في المائة من السكان (نحو 12 ألف شخص). ثم تطور عدد الشوام (بالأخص المسيحيون) ليصبح نحو 50 ألفًا قبل الحرب العالمية الثانية. ويقول المؤرخ اللبناني **مسعود ضاهر** في كتابه المرجعي حول الشوام في مصر** إن «**الظروف التاريخية كانت ملائمة جدًّا لعمل الشوام أكثر من سواهم. فالكفاءة الشخصية، ومعرفة اللغات، وسرعة التكيف... من الأسباب التي جعلت الشوام، وغالبيتهم من المسيحيين، يلعبون دورًا مميزًا في مصر**». وعلى صعيد الإنتاج الثقافي، برع الشوام في المساهمة في النشاط الفكري في مصر، فكانت لهم ريادة في مضمار النشر وإخراج الصحف. ويبدو أن الاختلافات الطائفية التي ضربت بلاد الشام لم يكن لها صدى كبير في مصر. فقد «**كانت العلاقات الاجتماعية بين طوائف الشوام في مصر عادية جدًّا ولم تكن متوترة كما في سوريا ولبنان. ويعود الفضل في ذلك إلى المجتمع المصري نفسه الذي صهر أبناءه والقاطنين بينهم في جميع المجالات ولم يسمح أن تكون مدارس الجمعيات الخيرية الطائفية حكرًا على أبناء الطائفة دون سواهم، بل مفتوحة أمام جميع القاطنين على أرض مصر**، كما يسجل ضاهر.

الشوام والنهضة

أتاح هذا السياق للرواد الشوام أن يساهموا في النهضة المصرية كأفضل ما تكون المساهمة. حمل الشوام المرتحلون إلى مصر نتائج اشتباكهم المتزايد مع الأفكار الغربية. قدم هؤلاء الرواد منظومة التمدن الغربي إلى العالم العربي، وحاولوا حقن الفكر العربي بمجموعة جديدة من المصطلحات والمفاهيم. **فبطرس البستاني** (1819–1883) واحد من أقدم من نحتوا بالعربية مفهوم الوطن والمواطن (في وقت متزامن مع **الطهطاوي**)، أما ابنه **سليم البُستاني** (1846–1884) فهو صاحب أول مجهود منظم لقراءة الثورة الفرنسية ومفاهيمها المركزية، على ما تكشف مقالاته عن «تاريخ فرنسا الحديث» في مجلة «الجنان» (صدرت في بيروت في العام 1870). وجدت هذه الأفكار صدى في مصر، سواء بارتحال المجلات الأدبية، أو بانتقال رواد النهضة أنفسهم إلى مصر. وكان الزمن الذي نزحت فيه هذه الرؤى هو سبعينيات القرن التاسع عشر، تلك الفترة التي ازدهرت بقدوم مرتحل آخر هو **جمال الدين الأفغاني** (1838 - 1897). تحلقت نخبة جديدة حول الأفغاني، وشكل الشوام رافدًا مهمًّا في هذه الحلقة. برز دورهم التاريخي في تأسيس الصحف والمجلات. فذاع صيت اللبناني **سَلِيم النَّقَّاش** (ت. 1884)، عندما أسس ثلاث صحف، كانت وعاءً للتفكير الحر قبل احتلال مصر على يد البريطانيين في 1882. هذه الصحف هي: «مصر» (تأسست العام 1877)، و«التجارة» (تأسست العام 1878)، و«المحروسة» (تأسست العام 1880). وفي الوقت ذاته، عكف السوري أديب إسحاق (1856–1885) على صياغة دعوة للتحرر من ربقة الاستبداد السياسي والاستعمار الأجنبي (غير المباشر آنذاك). يمثل إسحاق ذروة التفكير الحر عربيًا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. استوعب هذا الشاب عصارة ما بلغته النهضة في بلاد الشام، وعندما ارتحل إلى مصر، وجد بيئة ملائمة لأفكاره ودعواته الإصلاحية. هذه البيئة ذاتها هي التي دفعت صاحب «المقتطف» اللبناني **يعقوب صروف** (1852 - 1927) إلى أن ينتقل إلى مصر ومعه مجلته. وإذا كانت الظروف– سياسية أو غيرها– قد حجبت «المقتطف» عن الصدور في العام 1952، بعد مسيرة سبعة عقود من الزمان، فإن الاستمرار كان خصيصة منبرين، لهما أبلغ الأثر في الحياة المصرية. المنبر الأول هو صحيفة «الأهرام»، التي تأسست في العام 1875 على يد الأخوين اللبنانيين **سليم وبشارة تقلا**، والمنبر الثاني هو مجلة «الهلال» التي أسسها **جُرجي حبيب زيدان** (1861 –1914). مارست هذه المنابر، دورًا غير منكور في الثقافة والفكر في مصر. ونادرًا ما تجد تيارًا سياسيًا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يخلو من رمز شاميٍّ. فقد نبغ **بشارة خليل تقلا**، **وأديب إسحاق** في الدعوة إلى تبني نموذج «التمدن» الغربي. وظهر تقلا على وجه الخصوص وهو يحقن الحياة السياسية المصرية بمفردات واستعمالات جديدة، كأن يستعمل بكثرة مفردة «الشعب» للدلالة على جموع المصريين، وبهذا كان أسبق من السياسي المصري **مصطفى كامل باشا** (1874 –1908) في توظيف هذه المفردة. كما ظهر الشيخ **رشيد رضا**–الذي ارتحل إلى مصر من لبنان في أواخر القرن التاسع عشر–بوصفه رائدًا للإصلاح الاجتماعي والسياسي وفق المنظور الحضاري الإسلامي. كان الارتحال إلى مصر القرن التاسع عشر مخرجًا لآلاف الشوام من مأزق الطائفية ومناخ التشدد في بلادهم. وقد ساهم هؤلاء في نهضة أرض الكنانة، التي كانت أسبق دول المشرق في التماس أسباب إحياء الحضارة. لم يكن ارتحال الشوام إلى مصر ومكوثهم فيها عرضًا طارئًا. كانت مصر لبعضهم وطنًا بديلًا. يقول **أديب إسحاق** في مقال كتبه على الأرجح في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر: «ومصر. ولا حياء في الحب. بلد تركت فيه زهرة أيام الشباب وخلفت باكورة غرس الآداب، وهززت غُصن الأماني رطيبًا، ولبست ثوب الآمال قشيبًا، فما عدلت بي عن حبها النكبة، ولا أنستني عهدها الغربة. ولست أول محب زاده البعد وجدًا، ولم ينكث على الصد عهدًا»**** ■

المراجع

★ رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز (القاهرة: دار الهلال، 2001)، ص 17.

★★ الاقتباسان من مسعود ضاهر، الهجرة اللبنانية إلى مصر... هجرة الشوام (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، 1986)، ص 9 و11.

★★★ نظارة المالية، تعداد سكان القطر المصري 1897 (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية، 1898).

★★★★ ورد نص المقال في: عوني إسحاق (معد)، الدُّرَر وهي منتخبات طيب الذكر خالد الأثر الكاتب والشاعر والخطيب المرحوم أديب إسحق (بيروت: المطبعة الأدبية، 1909)، ص 155.

إيمان مرسال*

اللاجئ لا يحكي

AFP

تتساءل هذه المقالة عن اختلاف وضعيَّة المهاجر عن وضعيَّة النازح خارج بلده؛ كيف يكون على المهاجر أن يُثبت أهليَّته حتى يُقبَل في المكان الذي هاجر إليه، بينما يُعرف النازح بمأساته الجماعيَّة التي قد تطمس فرديَّته.

* شاعرة وكاتبة مصرية

قد نفكِّر في أن التأثير العنيف لصورة «إيلان» (الطفل الغريق) لا ينفصل عن كونه طفلًا صغيرًا، يمثِّل بشكلٍ ما النازح البريء، الأكثرَ ضعفًا حتى من النازحين البالغين، وأنه أيضًا الضحيَّة في نقائها

الطفلة فان ثي كيم فوك عارية أثر النابالم، فيتنام عام 1972

(1)

في 3 أيلول/ سبتمبر 2015، أغرقت صورة الطفل السوريِّ **إيلان كُردي** الصفحات الأولى لأهم الجرائد العالمية، وشاشات التلفاز، وبالطبع الفضاء الافتراضي. بدت جثة الصغير الملقاة على شاطئ في منطقة بودروم التركية وكأنها أيقونة النزوح السوريِّ، مثلما كانت صورة الطفلة **فان ثي كيم فوك** (Phan Thi Kim Phuc) في العام 1972–عارية بعد أن خلعت ملابسها المحترقة من النابالم، تجري مفرودة الذراعين في اتجاه الكاميرا – أيقونة حرب فيتنام. **إيلان** لم يتجاوز الثلاث سنوات، وحده على الشاطئ بعد أن غرق أخوه وأمُّه، وجهه للرمال. لا يجعلنا الأحمر الزاهي في ملابسه نصدِّق تمامًا أنه ميتٌ، كما أنه لم يفقد حذاءه في تلاطم الأمواج.

لم تكن صورة **إيلان** الأولى ولا الأخيرة في تمثيل مأساة النازحين السوريين، فهناك صور كثيرة لسوريين يُقتلون أمام العدسات، يهربون من الخراب، يعبرون البحر أو يغرقون فيه، يصعدون الأسلاك الشائكة في حدود بلد ما، أو ينامون على قضبان القطارات حتى لا يؤخذوا قسرًا لملاجئ النازحين في بلدٍ آخر. مع ذلك، نجحت صورة **إيلان** في ما لم تنجح فيه الصور الأخرى –لفترة على الأقل – في استدرار التعاطف الذي تُرجم في بعض قرارات **المفوضية الأممية لشؤون اللاجئين** بمساعدة أعداد أكبر من طالبي اللجوء، وفي مشاهد التضامن معهم، وازدياد مراكز التبرُّعات لهم، والترحيب بهم في بعض ميادين ألمانيا وغيرها.

قد نفكِّر في أن التأثير العنيف لصورة **إيلان** لا ينفصل عن كونه طفلًا صغيرًا، يمثِّل بشكلٍ ما النازح البريء، الأكثرَ ضعفًا حتى من النازحين البالغين، وأنه أيضًا الضحيَّة في نقائها، وهو بالضرورة غير مسؤول على الإطلاق عن ويلات الحرب. دعني أقول إن صورة النازح الميِّت البريء أكثر تأثيرًا من صورة النازح البالغ الناجي في العموم. لكن صورة **إيلان** تجعلني أفكِّر أيضًا في فكرة عبور البحر، ذلك البحر الذي عبره من قبله المهاجرون الأوائل من «سورية الكبرى» في أواخر القرن التاسع عشر إلى **مارسيليا**، ومن هناك في مراكب عبر المحيط الأطلنطي إلى أميركا. إنني أتساءل هنا عن الفرق بين وضعيَّة المهاجر ووضعيَّة طالب اللجوء، كيف يعبر كلٌّ منهما البحر، كيف يقدِّم كلٌّ منهما نفسه للسلطة التي عليها أن تستقبله أو ترفضه فور وصوله إلى الشاطئ الآخر.

(2)

أسعد رستُم، صاحب أول كتاب بالعربية عن الهجرة إلى أميركا الشمالية في العام 1895، يردُّ على الاتهامات والدعاوى التي يبثها أبناء وطنه مَمن يعارضون السفر إلى أميركا أو يعتقدون أن من يهاجر إليها يفقد أخلاقه الشرقية. كما يردُّ في الوقت نفسه على مَن يصفهم بأنهم بعض الأصوات الأميركية المُغرضة مِمّن يرفضون وجود السوريين، فيكتب: «**المهاجَرة ليست إلا أمرًا طبيعيًا في البشر يسوقهم إليها ابتغاء الرزق وسعة العيش، ولولا ذلك لما انتشر العمران في الأرض، فقد اضطر آدم أن يهجر الجنة إلى الأرض ليعمل فيها، وكذا تفرق أولاد نوح الثلاثة كل إلى ناحية من اليابسة، فاستقر سام في آسيا، وارتحل حام إلى إفريقية، ويافث إلى أوروبا، ولو كان لهم آخ رابع لسبق «كولومبس» إلى أمريكا**».[1]

يعود **رستم** بالهجرة إلى بداية الخليقة ويضرب المثل على طبيعيَّتها بالأب الأوَّل **آدم**، ويستخدم التصوُّر العربيَّ في العصور الوسطى الذي يُقسم شعوب العالم على حسب نسبتها لأبوَّة محددة مع وجود علاقات نسب وقرابة بينها. ولكن هذا ليس كافيًا بالنسبة لَمن يريد أن يُسكت الأصوات التي تنتقص قدْر المهاجرين؛ هنا يرجع رستُم إلى أكثر صور الهويَّة السوريَّة بهاءً، وهي صورة الفينيقيين: «**ولا يخفى ما كان للفينيقيين، سكان شطوط سوريا البحرية، من العزم والإقدام على الأسفار واحتمال أخطارها برًا وبحرًا حبًا بالإتجار والكسب حتى عمَّت مستعمراتهم الأرض، وليس بمستبعد أن يكون أهالي أمريكا الأصليون قومًا منهم حملهم اقتحام البحار والتوغُّل فيها إلى الوصول إلى أمريكا واستعمارها منذ أكثر من ثلاثة آلاف وخمسماية سنة، ثم انقطعت أخبارهم عن أوطانهم لبعد المشقة وصعوبة المسالك، يؤيد هذا القول آثارهم ومشابهتهم التامة لسكان فينيقية في الهيئة واللون حتى ليكاد الواقف على أحوال الشعبين أن يحكم بدون تردد بصحة هذا القول. ولذلك يكون السوريون أوْلى من غيرهم بالنزوح إلى أمريكا واجتناء ثمراتها فلا يأخذهم إحجام أو رهبة إذا ضاقت عليهم مذاهب الرزق في بلادهم**»[2]. يدافع رستُم عن أحقيَّته في الهجرة إلى أميركا بإيجاد صلة نسب بين أجداده وبين أرض الهجرة؛ إنه يستعين •••

إذا كان المهاجر يُسأل عن هويَّته، يُطالب بتعريف نفسه، فهل يُواجه طالب اللجوء نفس السؤال؟ وما هي إجابته ولماذا؟ إنني أتساءل هنا كيف يُعرِّف السوريُّ، طالب اللجوء، نفسه أمام سُلطة الضيافة في العام 2015؟

أطفال سوريون من أبناء المهاجرين السوريين يلعبون في شوارع نيويورك، في النصف الأول من القرن العشرين

بالفينيقيين الذين لم يهاجروا مثله بسبب الفقر وظلم العثمانيين، بل سافروا بحثًا عن اكتشاف ومغامرة. ثراء الماضي في هذا السياق يغفر فاقة الحاضر ومذلَّته.

يتكرَّر في بعض المقالات الرصينة التي دافعت عن موجات الهجرة الأولى إلى **أميركا** استدعاء الفينيقيين بأشكال أخرى، فقد «**أمُّوا في أيامهم قارات أوروبا وأفريقيا وآسيا وابتنوا فيها المدائن التجارية الكبيرة وبثوا روح المدنيَّة. ولو كان افتتاح كولومبس للعالم الجديد في أيامهم لكانوا أول من قصدوه وحرثوا أراضيه واستثمروا خيراته واستخرجوا معادنه وعمروا مدائنه ونظموا هيئته الاجتماعية**»[3].

ويستمرُّ هذا الاستدعاء عند بعض دارسي الهجرة العربية من العرب –الأميركيين؛ فيكتب **جورجي أُرفلي** (Gregory Orfalea) في العام 2006:

«**وصل جدِّي عوَّاد إلى مدينة نيويورك من عربين [مدينة سورية] على مركب بخاريَّة في 1920. لم يكن ليعرف أبدًا أن بحارة من لبنان كانوا قد تركوا آثارهم على الأحجار الأميركيَّة قبل زمن المسيح. كانوا أناسًا فرضوا سيطرتهم على البحر وكأنه صحراء. إنهم الفينيقيون**»[4]، بعد ذلك يبدأ **أُرفلي** في الاستشهاد بدراسات أنثروبولوجية تقترح وصول الفينيقيين إلى أميركا بين 480 و146 قبل الميلاد.[5]

لم يقتصر المهاجرون الأوائل على مدِّ شجرة نسبهم إلى الفينيقيين بحثًا عن صلة تعطيهم الحق في أرض الهجرة، فقد اختلفت أنسابهم باختلاف «الهويَّة»، فبينهم مَن يؤكد أن الأب الأول الذي وصل إلى أميركا كان إسبانيًا من أصل عربيٍّ، أو مسلمًا، أو درزيًّا أو زحلاويًّا [نسبة لمدينة زحلة اللبنانية]... إلخ. إذا وضعنا خطاب المهاجرين الأوائل عن ماضيهم بجانب صورة **إيلان**، فقد يمكننا رصد اختلاف وضعيَّة المهاجر عن وضعيَّة اللاجئ.

في طرحه لمفهوم «الضيافة» يعطي **جاك دريدا** (Jacques Derrida) أهميَّة كبيرة لما يسميه «**سؤال الأجنبيِّ أو الغريب**»؛ المهاجر باعتباره «**غريبًا**» أو «**ضيفًا**» يكون مطالبًا بأن يثبت أهليَّته، أنه عاقل وأخلاقيٌّ وقادر على أن يحترم سلطة الضيافة «**البلد أو الشعب الذي يستقبله**»، أنه لن يطمع في مكان المضيف في أي وقت، أي سيظل «غريبًا»[6]. يأتي التوتر الداخلي في موضوع الضيافة من أن سؤال الأجنبيِّ، تعريفه لنفسه، سواءً كان منبثقًا منه أو مطروحًا عليه هو ما يضع «المُضيف» أيضًا في وضع المساءلة؛ فالأجنبيُّ يمكنه أن يزعزع ويهدد سُلطة الضيافة، ذلك أن عليه أن يميِّز من يقوم بدور المُضيف (إدارة الهجرة، الأب، رب العائلة). ذلك أيضًا لأن الأجنبيَّ أو الغريب يبدو لحظة وصوله كسفسطائي، تعامله المدينة أو الدولة كسفسطائي؛ كشخص لا يتكلم مثل الآخرين، شخص يتكلم لغة ما غريبة. الأكثر من ذلك أنه يوجد تناقض أساس في ماهيَّة الضيافة، هذا التناقض يحدث من وضعيَّة الضيف؛ الذي قد يستطيع قتل سلطة الأب، ولكنه لا يستطيع قتل الأب إلا إذا كان ينتمي للأسرة، هذا ما يجعل الأجنبي يعرِّف نفسه ضد قتلة الأب، يعرِّف نفسه بما لا يكونه، وهو لم يكن ليهتم قط بتعريف نفسه ضد ذلك إلا إذا كان يشعر شعورًا عميقًا أنه واحد منهم، أنه افتراضيًّا قاتل أبيه[7].

ما يجذبني إلى الاستعانة بمفهوم **دريدا** عن الضيافة ووضعية الأجنبي وأسئلته فيها، هو وضعيَّة المهاجر المتوترة، بين بحثه عن حياة أفضل أو ملجإ آمنٍ، وبين رغبته في تجاوز ميثاق الضيافة –مثل **رستم** – بادعائه أنه قد يكون أيضًا فردًا من العائلة المضيفة. في الوقت نفسه عليه أن يظل أجنبيًّا لأن ذلك هو ما يعطيه بعض حقوق الضيافة، إنه ما يجعله أيضًا يحتفظ ببعض ما وصل به إلى شاطئ المضيف من عادات وتقاليد وحتى لغة. إنني أفترض أيضًا أن فهم صورة مكان الضيافة (أوروبا أو أميركا) في خطابات المهاجرين، يرتبط كليًا بوضعيَّة المهاجر الأجنبيِّ كضيف؛ بطريقة تعريفه لنفسه، بطموحه، وبالسرد الذي يتبناه عن تجربته في الوصول والبحث عن عمل وتفاوضه من أجل الاستمرار.

(3)

إذا كان المهاجر يُسأل عن هويَّته، يُطالب بتعريف نفسه، فهل يُواجه طالب اللجوء نفس السؤال؟ وما هي إجابته ولماذا؟ إنني أتساءل هنا كيف يُعرِّف السوريُّ، طالب اللجوء، نفسه أمام سُلطة الضيافة في العام 2015؟

لقد نشرت صفحة «**هيومان أوف نيويورك**» على موقع التواصل الاجتماعي **فيسبوك** سلسلة من صور وقصص بعض من نجَوا من الحرب وأهوال البحر وعبروا حدود أوروبا ووصلوا بسلام إلى الحصول على اللجوء السياسيِّ. وبالرغم من ثناء الآلاف من قرَّاء الصفحة في تعليقاتهم بأن هذه القصص أعطت صوتًا لمن لا صوت له، فإن هذه القصص ليس لها صوت؛ إنها تشترك في بناءٍ سرديٍّ واحدٍ (حتمية الهرب من الجحيم، الإشارة إلى الجحيم بتفاصيله وليس بأسبابه، العمل في تركيا لساعات مهولة لتوفير ثمن الهروب لأوروبا، شخصية المهرِّب الطمَّاع، المركب البلاستيكيُّ الذي يتم تحميله بأضعاف سعته، أهوال البحر، السلامة). يُضاف إلى ذلك أحيانًا، وحدة سرديَّة أخرى مثل قسوة السلطة الأمنيَّة في التعامل مع الواصلين لتوِّهم إلى الحدود، أو ظهور مخلِّص ما –سيعتبره القراء في تعليقاتهم نموذجًا للتعاطف الإنسانيِّ –كما في القصة المنشورة بتاريخ 27 أيلول/ سبتمبر لناجٍ سوريٍّ اسمه **محمد**، احتضنه وساعده خبازٌ في النمسا اسمه **فيرتز هوميل**[8].

بالرغم من تعدُّد هذه البورتريهات، وتقديمها اللاجئ السوريَّ كفرد، من المفترض أن له اسمًا وقصَّةً وماضيًا وإمكانيَّاتٍ تحقِّق ما في المستقبل، إلا أن التعريف الأكثر حضورًا لكل منهم هو كونه «ضحيَّة». تتشابه قصص هؤلاء الأفراد؛ طريقة

REUTERS

تحتاج سُلطة الضيافة اللاجئين لتُعيد تعريف هويَّتها وصفاتها. لهذا فإنها عادةً بقبولهم تُسقط أية مسؤوليَّة أو دور لها في مأساتهم

عرضها والتعاطف معها، كأنَّ الواقف على بوابة بلد آخر لا يمكنه أن يكون فردًا حتى لو طلب حق اللجوء بمفرده، ذلك أنه مُعرَّف بالكارثة الجماعيَّة. الهويَّة الوحيدة لطالب اللجوء التي قد تجعل سُلطة الضيافة تقبله هي اندراجه تحت مظلة الكارثة. هويَّته هي مأساته، إنه حتى لو حكى لنا قصته الفرديَّة، فهي تفصيلة في سرد جماعيٍّ أكبر. إننا لا نعرفه حين يحكي قصَّته، بل نظن أننا نعرفه من صور النزوح الجماعيِّ، من جمعيَّات حقوق الإنسان، من الميديا والسياسيِّين والمتعاطفين والرافضين.

عودة إلى **إيلان**، لقد تضاءل تأثير صورته بالتدريج. كاد التأثير أن يتلاشى بعد اعتداءات تشرين الثاني/ نوفمبر الإرهابيّة في **باريس**. يمكننا الآن أن نرى النقاش الدائر حول إمكانيَّة تسلل إرهابيين بين اللاجئين، أو رفض بعض الولايات الأميركيَّة استقبال لاجئين من سورية، أو الترحيب الكنديِّ المحدود بالنساء والأطفال «الأُسر» مما يشي بالتخوف من قبول أي رجل بالغ يطلب اللجوء وحده. قد يكون الأمر كما وصفته **سوزان سونتاغ** (Susan Sontag) «**صور البؤس التي تأتي من مناطق أخرى وتنشرها الأخبار لا تؤثر بحق في الرأي العام ما لم يكن هناك السياق المناسب لتلقيها**»[9]. قد تكون أُلفتنا مع صور المعاناة جزءًا من المشكلة أيضًا: «**أن تعاني، شيء، وأن تعيش مع صور المعاناة، شيء آخر. صور المعاناة لا توخز الضمير ولا تستدعي الرحمة وحسب، فلديها القدرة على إفساده أيضًا**»[10]. كأن التعاطف الأخلاقيَّ مع مأساة **إيلان** لم يوازه معرفةٌ أو فهمٌ بالحدث التاريخيِّ، إنه تعاطف وقتيٌّ يرتكز على أنسنة طالبي اللجوء. إنهم ليسوا مجرد أرقام، فمن بينهم أطفالٌ مثل **إيلان** الميِّت. ولكن ألا يحتوي كل اقتراح بأنسنة الآخر على إمكانيَّة سحب هذه الأنسنة منه أيضًا؟

(4)

تزداد مسوِّغات قبول طالب اللجوء كلما تفاقمت مأساته؛ إن حالته المزرية، وضعفه بل وموته وبراءته من المسؤولية عن الحدث التاريخيِّ هي ما قد يفتح الباب لاستضافته. موت **إيلان** فتح الباب مؤقتًا لسوريين أحسن حظًا منه، إن موته يشبه في قوته إثبات المهاجر أمام إدارة الهجرة ميزات كافية ليتم قبوله، يجري تلخيص ميزات المهاجر في نقاط من قبيل: تعليمه، إتقانه للغة البلد الذي يطلب الهجرة إليه، براءته أمام القانون من جرائم سابقة، قدرته على أن يُصبح عضوًا عاملًا في المجتمع الذي يستضيفه وغيرها.

ميزات طالب اللجوء تأتي من مأساته، ولعلَّ أهمها أن يكون يتيمًا؛ يتيمًا حتى لو وصل للحدود مع والديه. إنه لا يبحث في شجرة النسب عن صلة بأرض الضيافة مثلما فعل **رستُم**. ليس فقط لأنه ليس لديه الوقت ولا الطاقة لبحث كهذا، ولكن لأن ذلك سيقلل من كونه ضحيَّة. دعنا نتذكَّر هنا أن **رستُم** نفسه لم يعرف وهو يبحث عن اسم عائلة ونسب ويتبرَّك بجدوده الفينيقيين أن إدارة الهجرة الأميركيَّة «**ظلت تُسجِّل متحدثي العربية من السوريين المهاجرين تحت مُسمَّى «أتراك من آسيا»، ولم تعرِّفهم بـ «السوريين» حتى العام 1899**»[11] بما يعني أن ما ظنه رستُم اسم عائلته ونسبَه كان أمرًا يخصُّه وحده ولم تعره أرض الهجرة انتباهًا، بما يعني أيضًا أن آلافًا من الهاربين من ظلم العثمانيين قد جرى قبولهم في أميركا بتصوُّر انتمائهم لهويَّة مَن هربوا منه.

تقبل سُلطة الضيافة المهاجر بعد أن تُراجع ملفَّه مرات ومرات، بعد أن تقتنع بإمكانيَّة أن يُصبح ضيفًا لا يهدد وجودها، وأن لديه إمكانيات في المستقبل. أما عندما تقبل طالب اللجوء، فهي تُثبت لنفسها أن لديها قيمًا إنسانيَّةً ثابتةً وقديمةً، لديها أيضًا احترامًا لحقوق الإنسان في المواثيق الحديثة.

تحتاج سُلطة الضيافة اللاجئين لتُعيد تعريف هويَّتها وصفاتها. لهذا فإنها عادةً بقبولهم تُسقط أية مسؤوليَّة أو دور لها في مأساتهم. لقد خلت لافتات التجمعات الألمانيَّة التي رحبت بقطارات اللاجئين السوريين القادمة من المجر وإيطاليا في أيلول/ سبتمبر 2015 من الدعوة لوقف بيع السلاح للمتورطين في الحرب في سورية، بالرغم من وجود باحثين وناشطين ألمان يدينون ذلك ويرون فيه أحد أسباب مأساة اللاجئين. يقول الباحث الألماني **يورجن جراسلين** (Jürgen Grässlin) لـ «**إذاعة صوت ألمانيا**» (دويتشه فيله) في 21 تشرين الأول/ أكتوبر: «**الآن نحن مندهشون أنه قد تم استخدام هذه الأسلحة، وأن هناك، ويا للعبث، لاجئين ينتهي بهم الأمر في البلد الذي يصنع الأسلحة التي قمعتهم. لهذا أقول: «إذا زرعت أسلحة، حصدتَ لاجئين»**».[12]

عندما ينجو طالب اللجوء من الغرق في البحر، يصل إلى شاطئ النجاة وكل ما يُعرِّفه هو مأساته. إنه لا يرفع هويَّته بفخر أمام إدارة اللاجئين، لأنها نفسها الهويَّة التي نزح بسببها، يكون عليه أن يتفاداها إلى حين. ينبغي له في الحقيقة أن يثبت أن هويَّته ليست فاعلةً إلا بقدر الدور الذي لعبته في مأساته. قد يعيد ترميم هويَّته بعد أن يتم قبوله، بعد أن يتكيَّف. ساعتها يمكنه أن يبحث عن اسم عائلة وأن يطالب مرةً أخرى بحقوق الضيافة ■

1 ميخائيل أسعد رستم، الغريب في الغرب (بيروت: دار الحمرا للطبع والنشر، 1992)، ص 42.
2 رستم، ص 42.
3 أنظر: يوسف جرجس زخم الريشاني، السوريون في أمريكا، المقتطف، الجزء 30، عدد نوفمبر، 1950، ص 893– 894.
4 Gregory Orfalea. The Arab Americans: A History. Northampton, Mass: Olive Branch Press, 2006. p.43.
5 Orfalea, pp 43– 44.
6 Derrida, Jacques, and Anne Dufourmantelle. Of hospitality. Stanford University Press, 2000, p.3.
7 Ibid. p.5–7.
8 انظر القصة هنا https://www.facebook.com/10210707319673.humansofnewyork/photos/a/1097037703703662/5,4429,102099916530784?theater&3=type
9 Sontag, Susan. On Photography. New York: Farrar, Straus and Giroux, 1977. p.12
10 Ibid. p.15
11 Khalaf, Samir. «The background and causes of Lebanese/Syrian immigration to the United States before World War I.» 1987). Crossing the Waters. Arabic–Speaking Immigrants to the United States before (1940): 17–35.
12 التصريح في هذا الرابط: http://www.dw.com/en/weapons–go–to–conflict–zones–the–money–comes–to–18798104–germany/a

الهجرة الإرادية في سبيل الإنسانية

في أواخر سبعينيات القرن الماضي، قرر ناجي شفيق، وهو طبيب بشري متخصص في الصحة العامة، ترك بلاده مصر والهجرة للعمل في المجال الإنساني في دول عدة. يسرد شفيق هنا بعض الملامح العامة لسيرته المهنية طيلة أكثر من ثلاثة عقود بعيدًا عن وطنه.

عندما أرجع بالذاكرة إلى الماضي أسأل نفسي: كيف ولماذا اتخذت قرار الرحيل من بلدي مصر للعمل في الخارج؟

على العكس من زملائي، لم يدر بذهني مطلقًا أن أغادر بلدي. كل أحلامي كانت هنا. ولقد بذلت قصارى جهدي للقيام بشيء مفيد للمحرومين من الخدمات الطبية الأساسية. لم تكن مجهوداتي كافية بسبب التغيُّر الذي طرأ على النظام الصحي في مصر. لم تعد الصحة العامة في صدارة الأولويات. فضل معظم الأطباء العمل الخاص على حساب العمل في المستشفيات العامة. لم أستطع أن أفعل إلا ما اعتقدت أنه الصواب. أي العمل من خلال المؤسسات الحكومية لخدمة أشدِّ الناس احتياجًا وعدم فتح عيادة خاصة، لأن ذلك يتناقض مع ما أومن به. وأخيرًا، قررت الرحيل عن مصر في العام 1979.

أحلام جديدة

بدأت عملي في الخارج كطبيب متفرغ من خلال وزارة الصحة في الجزائر، حيث كان يوجد نقص في عدد الأطباء. كان المرتب وقتها معقولًا، واعتقدت عندئذٍ أن هذا هو المكان المثالي، وأنني سوف أمكث في هذا المكان لفترة طويلة. ولكن ما لم أكن أعلمه في ذلك الوقت، أننا مع مرور السنوات نتعلم أكثر ونكتسب مزيدًا من الخبرات، كما تُولد لدينا أحلام، ونصبح أكثر رغبة في استكشاف آفاقٍ جديدةٍ حتى لو كانت الضريبة هي المزيد من المعاناة. كان الدافع الثاني هو قبول التحدي؛ أي إدارة عيادة للخدمات الطبية للعاملين في منظمات الأمم المتحدة في العالم، الموجودين في واحدة من أكبر المهمات في العالم في ذلك الوقت وهي اليمن. بلد لا يتمتع بخدمات صحية جيدة. كان عملي بالأساس عملًا إكلينيكيًا، وبالإضافة إلى ذلك توليت عددًا من العمليات الخاصة باللاجئين، كما بدأت أتعرف على مشاريع التنمية، وأدركت أنني أفتقر إلى المنهجية العلمية. لهذا قررت دراسة «الصحة العامة» ولقد فعلت ذلك في مصر.

ناجي محمد شفيق*

الرسوم: **برهان كركوتلي****

مع اكتساب أدوات جديدة، بدأ إغراء آخر في الظهور، كان يدفعني في اتجاه التصدي لتحديات أكبر في أماكن أكثر خطورة. وبناء على ذلك بدأت العمل مع منظمات غير حكومية ـمثل «هيلث نيت إنترناشيونال» الهولندية (Health Net) ومنظمة أطباء بلا حدود السويسرية (Doctors Without Borders) ومع منظمة الصحة العالمية في كمبوديا، التي كانت، في ذلك الوقت، مكانًا شديد الخطورة والصعوبة، يعمه الفقر المدقع، وابتُلِيَ بأمراض المناطق المدارية، هذا بالإضافة إلَى الصراع المسلح والألغام الأرضية.

تمنحنا هذه الخبرات والتعايش معها، الإحساس بالإنجاز، ولكن في الوقت نفسه، توقظ شيطاننا الداخلي، الذي يطالب بتحديات أكبر وتجارب أكثر عمقًا. لذلك، كانت محطتي التالية هي كوريا الشمالية؛ بلد فُرضت عليه عقوبات دولية، معزول عن العالم، تسبقه صورة سلبية جدًا رسمها الإعلام «الدولي». عانى هذا البلد مؤخرًا من كارثةٍ طبيعيةٍ ومرَّ بأوقاتٍ عصيبةٍ بسبب المجاعة التي حصدت كثيرًا من الأرواح، وتركت الكثير من النساء والأطفال يعانون من سوء التغذية. خدمت هناك أولًا مع «منظمة الأمم المتحدة للطفولة» (يونيسيف) ثم مع «منظمة الصحة العالمية». في وقت لاحق، استُدعِيت إلى مكتب منظمة الصحة العالمية الإقليمي لجنوب شرق آسيا بالهند في تجربة كان من شأنها أن توفر خبرةً مختلفةً، لكنني سرعان ما افتقدت العمل الميداني والاتصال المباشر مع السكان المستهدفين. استغرق الأمر بضعة شهور، بعدها غادرت المكتب الإقليمي إلى إندونيسيا؛ بلد يتعامل يوميًا مع كل الأنواع المعروفة من الكوارث الطبيعية: الزلازل والتسونامي والبراكين والفيضانات والانهيارات الأرضية...الخ. ومع وصولي لمستوى عالٍ من الخبرة في إدارة البرامج، أنهيت حياتي العملية بالخدمة في بلدين آخرين هما تيمور الشرقية وتايلاند لتطوير قدرات التأهب لحالات الطوارئ ولتحسين أداء برنامج سلامة الطرق.

على أهبة الاستعداد

دائمًا ما يعد الإنسان نفسه قبل بداية أي مهمة. كنت دائمًا مستعدًا لكل شيء تقريبًا: الطقس (حارًا كان أو باردًا)، العزلة، الاستغناء عن التكنولوجيا الحديثة مثل الهواتف الذكية وعدم التواصل عن طريق الإنترنت، كيفية التعامل مع الأمراض المدارية والمتوطِّنة. شيء واحد كان دائمًا يؤرقني: البعد الإنساني. من حسن حظي أن هذا العامل كان إيجابيًا معي. أنا فخور أنه لا يزال لدي الكثير من الأصدقاء في كل مكان عملت فيه وما زلت على اتصال بهم. بذلت مجهودًا كبيرًا في فهم كل ما يتعلق بتخصصي. وقد ساعدني هؤلاء الأصدقاء في فهم معظم الأشياء الهامة التي بدونها لم أكن لأستطيع الوصول إلى الناس: اللغة والثقافة والتاريخ، وكل ما هو خارج مجال تخصصي. فكل الأمور في الحياة متصلة وعليك أن تتعرَّف على كل شيء بنفسك، ولا تركن لوسائل الإعلام، فكثيرًا ما تكون لها أجندتها السياسية الخاصة.

كنت دائمًا ما أعمل مع نظرائي لمعرفة ما هي الأشياء الجيدة التي ينبغي الحفاظ عليها وتدعيمها، وما هي الأشياء التي ينبغي تغييرها، والتعرف على المشاكل، مساعدتهم في التعرف على خبرات الدول الأخرى وكيفية حل المشاكل بعد التكيف مع الظروف المحلية. لم أخجل من أخطائي، بل واجهتها وتعلمت منها. لم أكن القاضي الذي يصدر أحكامًا وإنما حاولت أن أفهم. كان عقلي مفتوحًا، تعلمت من ثقافات وديانات وتقاليد الآخرين، وفوق كل شيء تعلمت احترامهم. لم يساعدني ذلك فحسب في التعامل مع المجتمعات، بل أيضًا أضاف إلى معرفتي وعلمي وصقل سلوكياتي.

أنقذ ذلك حياتي عندما تعاملت مع بقايا الخمير الحمر***، عندما وجدت نفسي عالقًا في حرب الشوارع في بنوم بنه عاصمة كمبوديا. هذه الخبرات علمتني كيفية تحديد طريقي والتعامل مع ضحايا الكوارث الطبيعية وكيفية إيجاد التوازن في القضايا السياسية وحقوق الإنسان مع البلد المضيف والدول المانحة. كانت بوصلتي دائمًا تركز على البحث عن طريق للوصول إلى المحتاجين. علاوة على ذلك، تعلمت كيفية التعامل مع بعض المسؤولين الحكوميين «الفاسدين» والمطالب غير المشروعة أحيانًا من قبل بعض ممثلي الدول المانحة.

هل شعرت بالخوف؟ نعم، مرات عدة كما يشعر أي إنسان آخر. ولكن ربما كان هنالك شيء أكثر إلحاحًا من الخوف. الشعور أنك تصل إلى أناسٍ في حالةٍ صعبةٍ، وتلبي احتياجاتهم، وترسم ابتسامةً على وجه طفل.

إذا نظرتُ إلى الوراء، أتذكر لحظاتٍ كنت فيها قريبًا من الموت، وأتساءل: كيف؟ ولماذا نجوت؟ لكنني أدركت أن ذلك حدث لسبب وجيه! ■

* طبيب بشرى مصري، عمل لأكثر من ثلاثة عقود في منظمات دولية معنية بالصحة في مصر والجزائر واليمن وكمبوديا وكوريا الشمالية والهند وإندونيسيا وتيمور الشرقية وتايلاند.

** فنان سوري راحل (2003–1932)

*** الحزب السياسي الحاكم في كمبوديا في الفترة من 1975 إلى 1979. كان عبارة عن تحالف لمجموعات شيوعية اندمجت وشكلت «الحزب الشيوعي» لكمبوتشيا

سفر

أحمد عبد المعطي حجازي*

اللوحة: عمّار داود**

. . .بيْننا، يَتَغَير لون الشجرْ
يتوغل طير السماواتِ في بحرِ هدأتِهِ
عالقًا بالخيوطِ التي تتقاطع في خضرة السهلِ
أو تتوازى
ويتصل البحر بالليل، ينقص وجه القمرْ

زمن من مطرْ
من رذاذٍ رتيبٍ
يسح بغير انقطاعٍ
أفي الليل، أم في النهارِ
ترى، كان هذا السفرْ؟
مدن للعبورِ فحسبُ
وأرصفة للصدى المعدني
وفي المدنِ الهامشيةِ ما يوقظ الذكرياتِ
وبين القرى ومدافنها شبَهٌ

ثَمَّ في العشبِ دربٌ
ومتسع لمرور الرياحِ
وبين القرى ومدافنها ينفذ الضوء في ورق الشجراتِ
ولا يتجسدُ
بينهما شهوة غير مرئيةٍ
لفحة من بياض الطلاءِ الذي يتردد بين البيوتِ
وبين المقابرِ
مرتجفًا في مياه النهَرْ

التفاصيل تفقد أسماءَها الآنَ
واللحظات التي سرقتني انتهت
والذي كان يفصل ما بيننا يختفي
مثلَ نافورةٍ سكتَتْ
ثم نبقى على الطرفْينِ يواجه كلٌ أخاه ولا يتقدمُ

يا أيهذا الجمال الذي ظل محتفظًا بالصبا
أيهذا الجمال الذي ظل محتميًا بالحجرْ

1977

* شاعر مصري

** فنان عراقي مقيم بالسويد

غزة:

مسابقة اللجنة الدولية للتصوير الفوتوغرافي والتدوين

نظمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وبالتعاون مع جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، مسابقة للتصوير الفوتوغرافي والتدوين حول الأنشطة التطوعية التي قامت بها الطواقم العاملة في المجال الإنساني، سواء كانت تهتم بالصحة أو تحسين البنية التحتية أو طرق أخرى لمساعدة الناس في أوقات الأزمات. اختتمت المسابقة بمعرض لأفضل الصور والتدوينات التي شاركت في المسابقة وقد تخلل الحفل الختامي الإعلان عن أسماء الفائزين من فئتي التصوير الفوتوغرافي والتدوين وتكريمهم. وفازت الصورة التي التقطها **حسن فرج** بالمركز الأول. وذكر فرج: «**أخذت هذه الصورة خلال الحرب على قطاع غزة أثناء مشاركتي مع فريق «كلنا غزة» لمساعدة منكوبي الحرب العام الماضي، ويظهر فيها أطفال من حي الشجاعية لجأوا مع ذويهم لمنطقة تل الهوى، يحملون في الصورة حاوية مياه فارغة بعد أن تسلموها من أعضاء الفريق الذين تواصلوا مع العديد من الجهات والأشخاص لتوفير مياه صالحة للشرب والتي كانت مفقودة**» (الصورة في أعلى). أما المركز الثاني فذهب لصورة محمد منصور، والمركز الثالث لصورة **محمد زرندح**، فيما حصدت صورة **عمر القطاع** أكبر عدد من أصوات الحضور في حفل المسابقة. أما التدوينات الحائزة على أفضل ثلاثة مراكز فهي: تدوينة «ملاك الأحلام والشوكولاتة» بقلم المدونة **سلسبيل زين الدين**، والمركز الثاني لتدوينة «عهد وأمل» بقلم **نسمة الحلبي**، والمركز الثالث لتدوينة «الشارة البيضاء والنقطة الفاصلة بين الحياة والموت» بقلم المدون **فادي الحسني**.

ICRC

اليمن:

دعم المتضررين من الأعاصير

ICRC

شاركت اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمات إغاثية أخرى في تقديم المساعدات للمتضررين من الأعاصير التي ضربت المناطق الساحلية الجنوبية لليمن في تِشْرِين الثاني/ نوفمبر 2015. وقد تحمَّلت جمعية «**الهلال الأحمر اليمني**» العبء الأكبر في الاستجابة الميدانية وتقديم بعض المساعدات الطارئة للمتضررين من هذه الأعاصير. كما شارك في تقديم الدعم: الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر وعدد من الجمعيات الوطنية، ومنها الصليب الأحمر الألماني والصليب الأحمر الفرنسي. شملت المساعدات التي قدمت للمتضررين: الاحتياجات الغذائية الضرورية والماء والأدوات المنزلية الأساسية وحليب الأطفال والملابس. ووفقًا لتقارير الهلال الأحمر اليمني، فقد لقي 26 شخصًا مصرعهم، وجرح العشرات، وتضرر ما يقرب من 55,000 شخص بفعل هذه الأعاصير التي دمَّرت أسبابًا العيش، بما في ذلك المحاصيل الزراعية والماشية في تلك المناطق، مما فاقم من الوضع الإنساني الصعب والمؤلم أصلًا نتيجة النزاع الدائر في البلاد.

الجزائر:

ورشة عمل دولية للضباط السامين حول القواعد المنظمة للعمليات العسكرية

نظمت **«وزارة الدفاع الوطني الجزائرية»** بالتعاون مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر ورشة العمل التاسعة للضباط السامين حول القواعد الدولية المنظمة للعمليات العسكرية (سويرمو 2015). وهذه هي المرة الأولى التي تُنظم فيها هذه الورشة في بلد عربي. شارك في هذه الورشة التي عُقدت في الجزائر العاصمة 80 ضابطًا ساميًّا من مختلف أنحاء العالم في الفترة من 14 إلى 15 تِـشْرين الثاني/ نوفمبر 2015. تمحورت الورشة حول تدعيم احترام الالتزامات القانونية للقوات المسلحة خلال الممارسات العملياتية.

وقد ألقى رئيس اللجنة الدولية السيد **بيتر ماورير**، خطاب الافتتاح في هذه الورشة، حيث أشار للتحديات المعاصرة التي تواجه القانون الدولي الإنساني في مختلف مناطق العالم، وفي الشرق الأوسط على وجه الخصوص. وقال **ماورير**: «**وفي كثير من الحالات، تتجاهل الجهات المسلحة القانون الدولي الإنساني الذي يشكل القواعد الأساسية التي تنظم استخدام القوة أثناء النزاع المسلح، وغالبًا ما تتعمد هذه الجهات استهداف المدنيين والأعيان المدنية خلال العمليات العسكرية، مجبرة بذلك آلاف الأشخاص على الفرار من منازلهم ومجتمعاتهم. ويتجلى هذا التعقيد المتزايد الذي يطبع أجواء عملنا أكثر ما يتجلى في الشرق الأوسط. فقد ارتفع مثلًا عدد الجماعات المسلحة الناشطة في سورية وليبيا أكثر من أي وقت مضى بين الحرب العالمية الثانية وبداية الربيع العربي... وهذا يزيد عدد الجماعات المسلحة التي علينا التفاوض معها من أجل تأمين الوصول الإنساني لكي نصل إلى أولئك الذين يعانون من النزاعات المسلحة. وعلاوة على ذلك، فبينما تتوق جماعات مسلحة غير حكومية عديدة منذ فترة طويلة إلى إقامة دول لها، يؤدي عدد السياقات الهشة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط إلى زيادة كبيرة في عدد المجتمعات المحلية التي تعيش، بحكم الأمر الواقع، تحت سيطرة الجماعات المسلحة. ولما كنا من العاملين في المجال الإنساني، فإننا نرتكز في مفاوضاتنا على هذا الواقع الذي يزداد فيه المشهد تعقيدًا بوجود جهات مسلحة تضطلع بوظائف مماثلة لوظائف الدول**».

ICRC

القاهرة:

تدريب طلاب الجامعات على مبادئ القانون الدولي الإنساني

ICRC

نظمت بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في القاهرة، يوم 13 تِـشْرين الثاني/ نوفمبر 2015، حلقة تدريبية لمجموعة من طلاب الجامعات المصرية على مبادئ القانون الدولي الإنساني ودور اللجنة الدولية للصليب الأحمر. استهدف التدريب تأهيل الطلبة المشاركين في «المسابقة الوطنية الأولى للمحاكمة الصورية» التي تنظمها اللجنة الدولية بالتنسيق مع الجامعات المصرية. شارك في التدريب 50 طالبًا و16 أستاذًا من كليات الحقوق في سبع جامعات مصرية هي: الأزهر، والقاهرة، وعين شمس، والمنوفية، والمنصورة، والإسكندرية، وحلوان.

... وبروتوكول تعاون بين اللجنة الدولية وهيئة الإسعاف المصرية

ICRC

وقعت اللجنة الدولية للصليب الأحمر و**هيئة الإسعاف المصرية** بروتوكول تعاون، يمهد الطريق لتنفيذ مشروع لدعم الرعاية قبل دخول المستشفى.

ويهدف المشروع، الذي يمتد لـ 18 شهرًا، إلى تحسين القدرة المؤسسية **لهيئة الإسعاف المصرية** من خلال رسم وتنفيذ سياسات متسقة وبرنامج مستدام لتعليم وتدريب كوادر الهيئة.

ويمثل دعم الخدمات الصحية والطارئة والتعامل مع حالات الإصابة الجماعية في البلاد إحدى ركائز الأولويات الصحية لبعثة اللجنة الدولية في مصر. وستساعد المبادرة المشتركة هيئة الإسعاف المصرية أيضًا على اكتساب القدرات وتلبية احتياجات كوادرها من الدعم النفسي المطلوب توافره للعاملين في مجال الإسعافات الأولية.

عمَّان:

تنظيم ملتقى «المبادئ الإرشادية للعمل الإنساني»

نظمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالتعاون مع جمعية «**الهلال الأحمر الأردني**» في 17 و18 تِـشْرِين الثاني/ نوفمبر 2015 ملتقًى إنسانيًا في عمَّان شارك فيه 90 ممثلًا عن الهيئات والمنظمات الإنسانية العاملة في الأردن والمعنية بالاستجابة للأزمة السورية. ناقش الملتقى الذي عقد تحت عنوان «**المبادئ الإرشادية للعمل الإنساني**»، واقع تطبيق المبادئ الإرشادية للعمل الإنساني وكيفية تعزيزها في الميدان. وقال رئيس بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في الأردن **فريديريك فورنييه**: «**إن اللجنة الدولية وشركاءها في الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر معنيون باستمرار الحوار حول المبادئ الإرشادية ومدى تطبيقها في العمل الإنساني، وهو ما استدعى تضافر الجهود لعقد مثل هذا الملتقى**». من جهته قال الرئيس العام لجمعية الهلال الأحمر الأردني **الدكتور محمد مطلق الحديد**: «إن **العمل الإنساني يرتكز على مبادئ راسخة في القانون الدولي الإنساني تسترشد بها الحركة الدولية، حيث يكفل الالتزام بهذه المبادئ نجاح هذا العمل**». وخرج المشاركون بمجموعة من التوصيات لتعزيز العمل الإنساني في الميدان بشكل تشاركي، ووفقًا لاحتياجات كل من اللاجئين والمجتمع المضيف.

طهران:

اجتماع تشاوري لتحسين نوعية الحياة للأشخاص ذوي الإعاقة

نظمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر وجمعية «**الهلال الأحمر الإيراني**» والاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، الاجتماع التشاوري الثاني حول سبل تحسين نوعية الحياة للأشخاص ذوي الإعاقة الجسدية أو العقلية، وذلك في الفترة من 2–4 تِـشْرِين الثاني/ نوفمبر 2015 في طهران. استهدف الاجتماع تطوير توصيات الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر لمساعدة الأشخاص ذوي الإعاقة، والبحث عن أفضل السبل لتذليل العقبات التي يواجهونها. شارك في الاجتماع ممثلون عن 12 جمعية وطنية من أستراليا، وكمبوديا، وكولومبيا، وكوبا، وغانا، وإندونيسيا، والنرويج، والصومال، والسودان، وفلسطين، وفيتنام، بالإضافة إلى إيران والاتحاد الدولي لجمعيات الهلال الأحمر والصليب الأحمر.

الكويت والمنامة:

ورشتا عمل حول المبادئ السبعة

بمناسبة مرور 50 عامًا على تبنِّي الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر للمبادئ الأساسية السبعة، نظمت البعثة الإقليمية للجنة الدولية للصليب الأحمر لدول مجلس التعاون الخليجي ورشتي عمل في كل من البحرين والكويت في تِـشْرِين الثاني/ نوفمبر 2015 حول مفهوم هذه المبادئ والتحديات التي تواجهها في الميدان.

جرى تنظيم الورشتين بالتعاون مع جمعيتي الهلال الأحمر في الكويت والبحرين، وفي المقر الرئيسي لكل منهما، واستفاد منهما حوالي 45 شخصًا من متطوعي وموظفي الجمعيتين، جرى تقسيمهم إلى مجموعات عمل ناقشت كل منها أحد هذه المبادئ. هدفت الورشتان إلى توفير منصَّة لمناقشة مفهوم كل مبدأ من مبادئ الحركة بتعمق، وتعزيز معرفة المشاركين بذلك، وضرورة الالتزام بالعمل بموجب هذه المبادئ، وإدراك الفرق الذي يحدثه عملهم عند التقيُّد بها في الميدان. ومن خلال المناقشات المستفيضة أثناء سير ورشات العمل جرى توصيف التحديات التي تواجه الموظفين والمتطوعين عند تطبيق هذه المبادئ.

بعثات اللجنة الدولية للصليب الأحمر في المنطقة

ICRC

القاهرة: 33 شارع 106 حدائق المعادي، 11431 القاهرة، ج م ع
هاتف: 25281540/25281541 2 (02+) فاكس: 25281566 2 (02+)
البريد الإلكتروني: cai_lecaire@icrc.org

عمّان: دير غبار، حي الديار، شارع يوسف أبو شحوت صندوق بريد 9058 عمان 11191
هاتف: 5921472/4604300 6 (962+) فاكس: 5921460 6 (962+)
البريد الإلكتروني: amm_amman@icrc.org

بغداد: الصالحية، حي السكك، محلة 220، زقاق40 دار 6 ص.ب 3317 العلوية بغداد– العراق
هاتف: 7/8126 443 770(0) (964+) 5/964614 7801(0) (964+)
البريد الإلكتروني: bagdad@icrc.org

دمشق: أبو رمانة، ساحة الروضة، شارع مصر، صندوق بريد 3579
هاتف: 3310476/3339034 11 (963+) فاكس: 3310441 11 (963+)
البريد الإلكتروني: dam_damas@icrc.org

الأراضي الفلسطينية المحتلة: شارع النبي شعيب رقم (14) منطقة الشيخ جراح، القدس 91202، صندوق بريد 20253
هاتف: 5917900 2 (972+) فاكس: 5917920 2 (972+)
البريد الإلكتروني: jer_jerusalem@icrc.org

بيروت: بناية منصور، شارع السادات، الحمرا، صندوق بريد 7188–11
هاتف: 739297/739298/739299 1 (961+) فاكس: 740087 1 (961+)
البريد الإلكتروني: bey_beyrouth@icrc.org

الخرطوم: العمارات شارع رقم 33 – منزل رقم 16 – الامتداد الجديد
صندوق بريد 1831 – 11111 الخرطوم
هاتف: 65/476464 183 (249+) (خمس خطوط) فاكس: 467709 183 (249+)
البريد الإلكتروني: kha_khartoum@icrc.org

تونس: بعثة إقليمية، (تغطي أنشطتها: تونس – المغرب – موريتانيا – الصحراء الغربية) المندوبية الإقليمية بتونس نهج بحيرة كنستنس، رواق البحيرة عمارة أ، ضفاف البحيرة تونس 1053
هاتف: 960179/960154/960196 71 (216+) فاكس: 960156 71 (216+)
البريد الإلكتروني: tun_tunis@icrc.org

طرابلس: النوفلين - شارع ابراهيم الهوني 10,53,050 بالقرب مصحة الأخوة طرابلس - ليبيا
هاتف: 9332 340 21/9331 340 21 (2180+)
البريد الإلكتروني: tri_tripoli@icrc.org

الجزائر: 43 شارع المعز ابن باديس بوارسون سابقًا - الأبيار – الجزائر
صندوق بريد : 16606 الجزائر
هاتف : 03 43 92 21 / 73 40 92 21 (213+) فاكس: 18 43 92 21 (213+)
البريد الإلكتروني: alg_alger@icrc.org

صنعاء: شارع بغداد، رقم 19، منزل رقم 20 صندوق بريد: 2267 صنعاء
هاتف: 4/467873 / 44 38 21 1 (967+) فاكس: 75 78 46 1 (967+)
البريد الإلكتروني: san_sanaa@icrc.org

الكويت: البعثة الإقليمية لدول مجلس التعاون الخليجي (تغطي أنشطتها: الكويت، السعودية، الإمارات العربية المتحدة، قطر، البحرين، سلطنة عمان) الجابرية، قطعة 8، شارع رقم 17، منزل رقم 4 صندوق بريد: 28078 – الصفاة 13141
هاتف: 53220612 / 53220622 / 53220982 (965+) فاكس: 25324598 (965+)
البريد الإلكتروني: kow_koweitcity@icrc.org

الصومال: Denis Pritt Road، صندوق بريد: 73226 – 00200 نيروبي، كينيا
هاتف: 301 2719 (25420+) فاكس: 13731 27 (25420+)
البريد الإلكتروني: somalia@icrc.org

طهران: طهران، إلهيه، شارع شهيد شريفي منش، زنقة آذر رقم 4، قرب مستشفى أختر.
الرمز البريدي: 1964715353
هاتف: 4–2122645821 (98+) فاكس: 2122600534 (98+)
البريد الإلكتروني: Teh_teheran@icrc.org

نواكشوط: الحي A، المنزل رقم ZRA 722، صندوق البريد 5110، نواكشوط، الجمهورية الإسلامية الموريتانية
هاتف: 45245810/45244738 (222+) فاكس: 45244697 (222+)
البريد الإلكتروني: nou_nouakchott@cicr.org

جوبا: شارع الوزارات العمارات، جوبا، جمهورية جنوب السودان
هاتف: 889 151 977 0/170 275 912 0 (211+)
البريد الإلكتروني: jub_juba@icrc.org

القانون الدولي الإنساني: إجابات على أسئلتك

يُقدم هذا الكُتيِّب، الذي يقع في مائة صفحة، مدخلًا تعريفيًّا للقانون الدولي الإنساني. صيغت مواد الكُتيِّب على هيئة أسئلة تستعرض تاريخ وضع هذا القانون ومجمل الحالات التي يطبق فيها مع شرح لاتفاقيات جنيف وبروتوكولاتها الإضافية، وصولًا إلى تحديد من يحميهم القانون الدولي الإنساني وآليات الحماية، وصولًا إلى أسئلة من نوعية كيف يحمي القانون الدولي الإنساني اللاجئين والأشخاص المشرَّدين داخليًّا؟ كيف يتم تنفيذ القانون الدولي الإنساني؟ ما هو دور اللجنة الدولية للصليب الأحمر في تطوير وضمان احترام القانون الدولي الإنساني؟ وكيف يُحاكَم مجرمو الحرب المشتَبه بهم بموجب القانون الدولي؟ يمكن الحصول على هذه المطبوعة من خلال هذا الرابط:
https://www.icrc.org/ara/resources/documents/publication/p0703.htm

الأطر المعيارية الوطنية لحماية الرعاية الصحية
Domestic Normative Frameworks

تعرض هذه المطبوعة عددًا من التوصيات –لا سيما التدابير والإجراءات التشريعية– الموجَّهة للدول، بغرض مساعدتها في تطبيق جوانب القانون الدولي المعنية بحماية تقديم الرعاية الصحية أثناء النزاعات المُسلحة وحالات الطوارئ الأخرى. ويَنصب تركيز هذه المطبوعة على تعزيز الحماية القانونية المكفولة للمرضى وطواقم الرعاية الصحية ومرافقها، وضمان الاستخدام السليم للشارات المميِّزة، وتوفير الحماية القانونية لحماية الأخلاقيات والسرية الطبية، والتعامل الفعَّال مع انتهاكات القواعد التي تحمي توفير الرعاية الصحية. وقد انبثقت هذه التوصيات عن حلقة عمل «**الرعاية الصحية في خطر**» التي عُقدت في **بروكسل** في العام 2014، وتستند إلى البحوث التي أجرتها اللجنة الدولية للصليب الأحمر حول الأطر القانونية لـ 39 دولة. مُرفق بهذه المطبوعة وثيقة إرشادية، وهي مُضمَّنة في الملحق رقم 19 من دليل التنفيذ الوطني للقانون الدولي الإنساني.
https://www.icrc.org/ara/resources/documents/publication/p4028.htm

منع الجرائم الدولية وقمعها: من أجل نهج «متكامل» قائم على الممارسة الوطنية

يعرض هذا التقرير، الذي يستند إلى الممارسة الوطنية في المقام الأول، نهجًا عمليًّا لمنع الجرائم الدولية وقمعها، مع التركيز بشكل خاص على «**نظام روما الأساسي**» الخاص بالمحكمة الجنائية الدولية. يتناول هذا التقرير الأعمال والمباحثات التي تلت الاجتماع العالمي كما يشمل المناقشات التي دارت حول الأساليب والحلول المتاحة للتصدي للتحديات التي تصاحب إدراج أحكام القانون الدولي الإنساني (لا سيما الجوانب القمعية) في القانون الوطني. بالإضافة إلى ما تقدم، يعرض التقرير بعض المباحثات المتعلقة بقضايا مهمَّة أخرى، منها على سبيل المثال الاختصاص العالمي، ودور العقوبات في منع الانتهاكات الخطيرة للقانون الدولي الإنساني. يمكن تحميل التقرير من على الرابط:
https://www.icrc.org/eng/resources/documents/publication/p4138.htm

تعزيز أحكام القانون التي تحمي الأشخاص المحرومين من حريتهم

يتناول هذا التقرير المناقشاتِ التي جرت خلال الاجتماع التشاوري المواضيعي للخبراء الحكوميين بشأن ظروف الاحتجاز، لا سيما الفئات المستضعفة من المحتجزين، الذي عقد في كانون الثاني/ يناير من العام 2014. وقد شكل هذا الاجتماع جزءًا من مبادرة اللجنة الدولية لتعزيز القانون الدولي الإنساني، وجاء انعقاده استنادًا إلى القرار رقم 1 الصادر عن المؤتمر الدولي الحادي والثلاثين للصليب الأحمر والهلال الأحمر. كما عُقد اجتماع تشاوري مواضيعي ثانٍ في العام 2014، تناول أسباب الاعتقال ونقل المحتجزين وإجراءاتهما، وأُفرد له تقرير مستقل. هنا رابط هذا التقرير:
https://www.icrc.org/eng/resources/documents/publication/p.4234htm

communities receiving the refugees to provide support and protection to the vulnerable groups among them. Moreover, the continuation of armed conflict is leading to the creation of further waves of migration and refugees.

The International Committee of the Red Cross (ICRC) understands that migration has different causes and that migrants are not a homogenous group. There are those who have been displaced or become refugees because migration is their only means of survival, and there are those who migrate in search of a source of income for themselves and their families. But they all have common humanitarian concerns: they suffer from their separation from their families and their home countries and they may feel vulnerable and alienated in communities that are not always welcoming. They are all looking for a better future as an alternative to a difficult past.

Humanitarian organizations, including the ICRC, are trying hard to counter the negative effects of migration, either through pre-emptive action by inviting parties involved in armed conflict to take the necessary measures to comply with the rules of international humanitarian law, or by responding to the humanitarian needs of migrants, through providing them with services and protection, especially for vulnerable groups.

*Almost a decade ago, **Al Insani** dedicated part of issue 39 to the subject of migration and its humanitarian dimensions. In this issue, we are again trying to understand contemporary migration in all its aspects and complexity, while digging into the history of past migrations and exploring the experience accumulated in dealing with millions of migrants in various parts of the world. We look at the motives that compel people to flee their homes and try to listen to the accounts told by refugees of what they have suffered on their journeys. We also investigate the collective memory of migration and the stereotypes formed about migrants in art and literature. Finally, we highlight the efforts of humanitarian organizations to alleviate the suffering caused by migration.*

«Al-Insani»

AL-INSANI . 60 . Winter 2016

Searching for a Place Under the Sun

Contents

• **International conference: a missed attempt to improve compliance with the rules of war.** By: **Ahmed Zaki Osman**, Managing Editor, Al-Insani.
A report on the 32nd International Conference of the Red Cross and Red Crescent convened in Geneva in December 2015. The report argues that it was a missed opportunity to reinforce international humanitarian law.

• **How does the ICRC help migrants?**
Excerpts from a booklet on the activities that the ICRC carries out on behalf of vulnerable migrants and their families around the world.

• **Does international humanitarian law provide protection for migrants?** By: **Omar Mekki**, Regional Legal Coordinator, ICRC Cairo.
International humanitarian law is important for refugees and migrants, providing additional protection for civilians in times of war. This article analyzes the protection that it provides for people fleeing their countries in times of conflict.

• **A miserable life just trying to remain alive: seeking refuge in war-torn Yemen.** By: **Adnan Hizam**, Communication Officer, ICRC Sana'a.
The plight of Ethiopian and Somali refugees in Yemen has increased. They fled their countries in the hope of a safer life, but the recent armed conflict in their host country poses new challenges for these refugees.

• **Migrants to the Gulf countries: abundant numbers pose a massive humanitarian challenge.** By: **Cynthia Aoun**, Regional Tracing Delegate, ICRC Regional Delegation in Kuwait and **Reham Baasher**, Protection Delegate, ICRC Kuwait.
The increasing demand for labour in the Gulf Arab countries is attracting millions of workers from low-income countries. This article describes the activities undertaken by ICRC to help address their humanitarian needs.

• **Syria: when half the population becomes displaced.** By: **Ibrahim Daraji**, a Syrian academic and regional legal consultant for UNHCR.
Half of the Syrian population have fled their homes since the outbreak of the conflict in March 2011. This article analyzes the current situation of Syrian refugees and displaced people within and outside the country.

• **The season of migration to the unknown.** By: **Majd Bou Mjahed**, a Lebanese journalist.
Every day, hundreds of Syrian refugees in Lebanon use the northern port city of Tripoli to flee to Turkey. This article investigates these "illegal" journeys and the reasons behind them.

• **Testimony: journey on a death boat.** By: **Nour al-Waky**, a Syrian man who managed to reach Europe using an "illegal" boat.
Excerpts from the testimony of a young Syrian man detailing the journey he took by boat, along with hundreds of other people of different nationalities, to cross the Mediterranean to Europe.

• **At the gates of Europe: an unprecedented humanitarian crisis.** By: **Lucile Marbeau**, Communication Officer, ICRC Paris.
The current massive influx of refugees has created an unprecedented humanitarian crisis in Europe. This article describes the activities undertaken by the ICRC and National Societies to support these refugees.

• **When smartphones become a lifeline.** By: **Mohamed Allam**, Social Media Analyst, ICRC Regional Communication Centre, Cairo.
Thousands of refugees rely upon smartphones to find safe passage in their journey to Europe. This article discusses how GPS and messaging applications provide a lifeline for them.

• **Lebanon: the right to education for more than half a million Syrians is at risk.** By: **Manal Abdel Ahad**, Lebanese journalist.
This article highlights the challenges faced by Syrian children to secure educational opportunities in Lebanon.

• **Sudan: the hope of crossing overshadows the fear of death.** By: **Muzdalefa Osman**, Sudanese journalist.
Sudan has become a transit hub for migration from the Horn of Africa to North Africa and Europe. This article looks at the conditions there for migrants and the efforts made to protect them.

• **Five-year-old Leila reunited with her parents.** By: **Yamila Castro**, Public Communication Delegate, ICRC Juba.
After being separated from her family due to conflict and ending up in South Sudan, five-year-old Leila is reunited with her parents in Sudan.

• **Afghanistan: Haroun and Shehzad are reunited with their families.** By: **Omar Shamshad**, Communication Field Officer, ICRC Kabul.
Tens of thousands of Afghanis have disappeared or been separated from their families during seemingly endless decades of war and strife. This article tells the story of a father who was separated from his two beloved sons but was lucky enough to find them with the support of the ICRC.

• **The house is dark: images of Afghan refugees in Iranian cinema.** By: **Mohsen Azarm**, Iranian film critic.
This article analyzes the ways Iranian movies have portrayed the lives and plight of Afghan refugees in Iran.

• **The African.** By: **Alaa Khaled**, Egyptian novelist and poet.
For centuries, the figure of the "African" has been representative of forced displacement, of the African slaves forcefully separated from their physical and cultural lineage. Nevertheless, Africans have struggled to maintain the memory of this tragic journey.

• **The ICRC archive tells stories from one hundred years of refuge.** By: **Daniel Palmieri**, historian and archivist, ICRC Geneva.
This article looks in the ICRC archive to shed light on the refugee crises of the twentieth century, particularly in Europe.

• **The Syro-Lebanese in Egypt: contributing to the Arab renaissance.** By: **Ahmed Zaki Osman**, Managing Editor, Al-Insani.
Egypt witnessed a flow of Syro-Lebanese people, or "Shawam" as Egyptians like to call them, to the country in the second half of the nineteenth century, due to political and economic problems in their countries of origin. This migration is an important example of how migrants can contribute to the cultural and economic success of their host country.

• **The refugee can't tell.** By: **Iman Mersal**, Egyptian poet and Associate Professor of Arabic Language and Literature at University of Alberta.
This article analyzes the image of "the migrant", struggling to demonstrate his eligibility to be part of a new society.

• **Without retouches: how I stopped being a "humanitarian" worker.** By: **Nagi M. Shafik**, a medical doctor from Egypt.
The testimony of an Egyptian doctor who left his country and worked in the humanitarian field for more than 35 years in countries such as Algeria, Yemen, Cambodia, North Korea, India, Indonesia, East Timor and Thailand.

• **Poetry: The traveller.** By: **Ahmed Abdel Muati Hijazi**, Egyptian poet.

• **From around the world**

Editorial

The Age of Diaspora

If the nineteenth century was the age of great migrations, during which millions of people went to discover new lands in the hope of a better life, the twentieth century was the age of seeking refuge from devastating conflicts. More than 100 million people were forced to leave their homes because of world wars and then because of the establishment of new states, as was the case in 1947 when about 17 million people found themselves displaced upon the foundation of the states of India and Pakistan in the mid-twentieth century.

Subsequent decades were no kinder as people continued to suffer the pains of displacement and migration throughout the century. But the current century has been even harsher, with conflict causing nearly 60 million people to become migrants, whether as refugees, displaced populations or voluntarily immigrants.

This unprecedented and complicated wave of migration poses serious challenges to the entire world and to all those engaged in humanitarian work. With the ongoing changes in the forms of armed conflict, as dozens of armed groups, as well as governments, engage in hostilities, the rules laid down in international humanitarian law to govern war, or the "law of war", are not always respected.

Parties to conflicts frequently ignore the rules of war, not making enough efforts to spare civilian casualties, and sometimes even deliberately targeting civilians, forcing millions to flee their homes. Needless to say, if compliance with the rules laid out in the law of war was ensured, civilian populations would be protected and innocent lives would not be at risk. Whole populations would be spared the suffering of having to leave their homes and countries in appalling circumstances.

In this context, meeting the needs of migrants and displaced people has become extremely difficult. The huge number of refugees, the limited resources available and frequent difficulties of access, all reduce the ability to deliver assistance to those in need. This problem is exacerbated by the inability of those

ICRC

حياة النزوح

يعيش جنوب السودان منذ عامين حياة النزوح. فقد أُجبر ما يقرب من مليون شخص، سواء داخل جنوب السودان أو عبر البلدان المجاورة، على النزوح منذ بداية النزاع في كانون الأول/ ديسمبر 2013. وبالرغم من توقيع اتفاق سلام، لا تزال الآثار الإنسانية تبعث على القلق البالغ. فقد دفع النزوح الجماعي مجتمعات بأسرها إلى البحث عن الغذاء والرعاية الصحية، هذا بخلاف تعرضها لمخاطر الحرب والاعتداء الجنسي. وانفصل الكثيرون عن أحبائهم ولا يزال الملايين يعيشون على أمل العودة إلى ديارهم.